

دار الكتب www.dar-alkotob.com

www.dar-alkotob.com دار الكتب

صلى على نبينا وآلينا

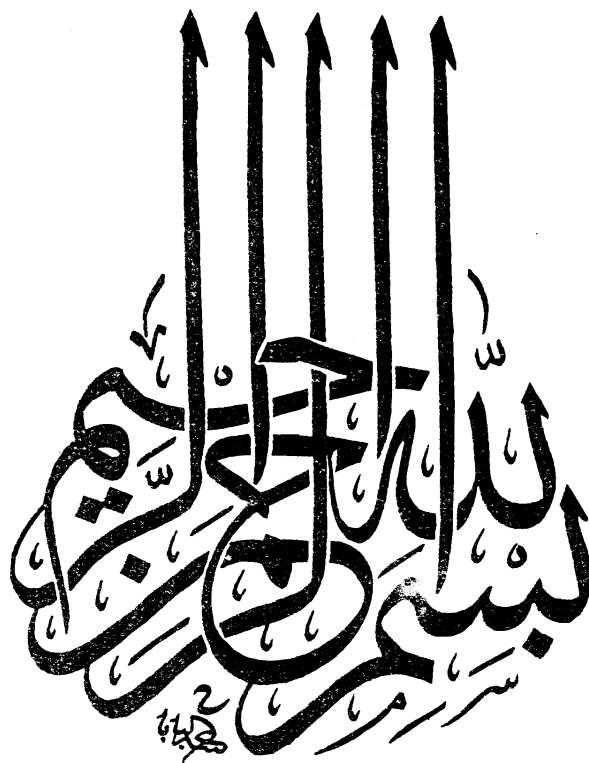
في العصر الأموي

الاستاذ الدكتور

طلعت صبيح السيد

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

دار الكتب www.dar-alkotob.com





المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله
وأصحابه ومن والاه.

وبعد:

فليس ينكر أحد أن دراسة النصوص الأدبية عمل فنى يعد ذا
درجة كبيرة للغاية فى حقل الدراسات الأدبية والتقدية، وهذا العمل
يتطلب قدرات خاصة، كما يتطلب وسائل وأدوات من العلوم والفنون
حتى يودى على وجهه الصحيح.

وليس ينكر أحد كذلك أن أغراض الشعر واتجاهاته فى عصر
بنى أمية قد أخذت فى التعدد والاتساع، وهى مع هذا التعدد والاتساع
تتصل بالعصر اتصالاً مباشراً، أو إن أردت الدقة فقل إنها نتاج طبيعى
للعصر وتقلباته وصراعاته، وقد نقلت لنا صورة كاملة لما كان فى
العصر، صورة قد لا نجد لها مكتملة فى كتب التاريخ القديم.

والكتاب يضم مجموعة من عيسون الأدب العربى فى العصر
الأموى، بين شعر ونثر، وأفضنا فى تحليل وشرح هذه
النصوص ، وناقشنا ما فيها من أفكار ، وأساليب ، وصور بيانية ، وما
إلى ذلك مما يعول عليه المعاصرون من عاطفة وموسيقى وغيرها.

وقد حرصنا على أن يقوم نهجنا فى هذه الدراسة على الاهتمام
بالصراعات السياسية والاضطرابات الحزبية؛ ذلك لأن عصر بنى أمية
كان عصر أحزاب سياسية حقيقية، لكل منها مذهبه، وأراؤه،

ونظرياته ، ولكل منها كذلك وسائله فى الدعاية
لأفكاره ، وتحقيقها ، والتطور بها من نطاق الرأى والفكر إلى ميدان
القتال والحرب أحيانا.

ثم إن اهتمامنا بالصراعات السياسية أمر يعين على
التوضيح، وفى ذلك كله تسديد للدراسة ، يؤيد ذلك أن شعراء العصر
لكل منهم نزعتة الخاصة لحزب أو فريق بعينه ، ولكل منهم كذلك دعيرة
فى شعره لهذا الحزب أو ذلك مدحا وهجاء.

وقيل أن ننهى المقدمة يجدر بنا أن نقول إن تسليط الضوء على
النصوص الأدبية يعنى بشكل أو بآخر الاحتفال بعلوم شتى ، وليس
كالنصوص الأدبية من شعر ونثر شئ من الموضوعات والمواد يمكن
الإنسان من فهم اللغة العربية وتذوقها ، وإدراك ما أودعها الله من
أسرار وجمال ودقة.

وحسب اللغة العربية أنها لغة القرآن الكريم ، والسنة النبوية
الشريفة ، وحسب النص الأدبى مكانة وشرفا أن يكون مفتاحا لفهم اللغة
وتذوقها ؛ فالعناية بالنصوص الأدبية إذا من أهم الرسائل التى تعرف
المسلم بمقاصد كتاب الله، وسنة رسوله المصطفى ، صلى الله
عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم.

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنبت.

أ.د / طلعت صبح السيد

المنصورة / رمضان ١٤٢١ هـ
ديسمبر ٢٠٠٠ م

تمهيد - ويتناول

أولاً : مدخل إلى دراسة العصر الأموي

ما أن انقضى عهد عمر بن عبد الخطاب -رضي الله عنه- حتى علت على الساحة الإسلامية أسباب جعلت الهوة تتسع بين المسلمين ، وعصفت فرقتهم بالوحدة التي نعموا بها في العهد الأول للإسلام ونشأت من ثم الأحزاب السياسية، وأخذت تستكمل أسباب قوتها ومعالم شخصيتها.

ولا شك أن تاريخ الدولة الأموية يمثل صورة حقيقية لهذا الصراع الحزبي فقد اختلفت في هذه الدولة الأهواء والأغراض، وأصبحت ميداناً تتصارع فيه الأحزاب، وكانوا معاول هدم في بناء الدولة منذ فجر حياتها وحتى أفول شمسها.

فالخوارج يكفرون الدولة الأموية، والشيعية يخرجون عليها تحت شعار الدعوة لآل البيت، ويقومون من أجل ذلك بالحروب والثورات التي هزت أركان الدولة وأضعفت كيانها، وكانت من أهم العوامل في القضاء عليها. والزيبريون يقفون من الدولة موقف العداء السافر ويسيطرون على معظم ولاياتها فترة من الزمان.

(١) الأمويون

بعد مقتل عثمان بن عفان بويع على بن أبي طالب بالخلافة، ولم تكن الخلافة آنذاك مركزاً يحسد عليه صاحبه لما كان يحيط به من أهوال ومتاعب وهذا هو السبب في رفض رجال الشورى لها، حتى لا يكون هناك مجال لسوء الظن بهم.

ولم يكد على يتولى الخلافة حتى واجهته العقبات وأحاطت به المتاعب فقد طلب إليه جماعة من أولى الأمر على رأسهم معاوية بن أبي سفيان- أن يحاكم هؤلاء الثوار الذين قاموا بقتل الخليفة عثمان بن عفان^(١).

وتماذى معاوية فى دعواه، فأخذ يثير الناس، ورفض أن يبايع عليها وتمكن أن يحرك المشاعر ويثير الخواطر، وكان قد حشد لذلك كل ما لديه من أساليب الدهاء، وألقى فى أذهان الناس أنه إنما يطالب بئثار عثمان من قاتليه وأن عليها قد اشترك فى هذا الجرم وأوغل فيه.

فى هذا الجو بدأ على يوجه معظم اهتمامه إلى معاوية فهو العدو الألد الذى لا يزال يحكم بلاد الشام ويتجاهل أمر الخليفة بعزله، ولا يقو أوامر الخليفة ولا يعترف بها، وبدأ الصراع فى موقعة الجمل (٣٦ هـ - ٦٥٦ م) وقتل فيها طلحة والزبير وتم النصر لعلى.

وسرعان ما تجدد الصراع بين على ومعاوية فى موقعة صفين (٣٧ هـ - ٦٥٧ م) ، وكاد النصر يتحقق لعلى لولا الحيلة التى لجأ إليها عمرو بن العاص قائد جند معاوية فقد رفع جنده المصاحف، وكان التحكيم وخلق على وتثبيت معاوية^(٢).

وقد استطاع معاوية أن يستأثر بالخلافة ويقراها فى البيت الأموى وبخاصة بعد أن اضطر الحسن بن على إلى التنازل عنها وإيقانه أنه لا طاقة له بنزال معاوية وجنده، فصالحه على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا، وقد وافق معاوية على ذلك واجتمعت الكلمة عليه^(٣).

(١) انظر الدولة الأموية فى الشرق د. الطيب النجار: ١٢ وما بعدها ط ٣ .

(٢) راجع تاريخ الطبرى ج ٥ والكامل لابن الأثير ج ٣ .

(٣) تاريخ يعقوبى: ٥٤/٢٠. البداية والنهاية لابن كثير ١٦/٨ .

وهكذا قامت الدولة الأموية (٤١ هـ - ٦٦١م)، وبويع معاوية في الكوفة سنة ٤١ هـ على مشهد من الحسن والحسين^(١). لكنه لم يلبث إلا قليلا حتى ابتدع نظاما جديدا في الخلافة، فأخرجها من دائرة الشورى والانتخاب إلى التعيين والوراثة وذلك بإعلانه البيعة لابنه يزيد، وشرع يوطد الملك له ويعهد إليه بولاية العهد في حياته.

واتخذ معاوية من مدينة دمشق مركزا للخلافة الأموية وحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم، وعلى الرغم من إبقائه على النظام الإداري القديم إلا أنه أول من اصطنع الموالي والنصارى في المناصب^(٢). وأخذ بنو أمية ودعاتهم يحملون الناس على الطاعة لهم وعلى نصرتهم ومقاتلة من يتمرد على سلطانهم... وكانت حجتهم في ذلك أنهم خلفاء الله ورسوله.

وقد جهر بهذا زياد والى معاوية في خطبته البتراء بالبصرة فقال: ^(٣) "أيها الناس، إنا أصبحنا لكم سادة، وعنكم زادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي حولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا".

وكان على الدولة الأموية - لتوطيد دعائم ملكها - أن تستميل الناس إليها، فتسلح بنوها بالسيف وباللسان وبالقلم وبالعطاء، وتسلحوا فيما تسلحوا به بسياسة التفريق والتمزيق وبعثوا العصبية القبلية والعصبية الجنتسية أو الشعبوية^(٤).

(١) مروج الذهب: ٣٦/٢، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٦ هـ.

(٢) انظر تاريخ الدولة العربية د. عبد العزيز سالم: ٣٤٦، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر.

(٣) البيان والتبيين: ٦٤/٢، نشر مكتبة الخانجي.

(٤) انظر مروج الذهب: ٢١/٢.

ولعل أظهر ما يمثل دهاء معاوية وسعة عقله أنه عرف كيف يتخذ من العصبية حصنا منيعا يحصن به ملكه وملك أولاده من بعده ، فهل كان الصراع بين الزبيرية (أتباع عبدالله بن الزبير) والأموية إلا صراع المضرية واليمانية^(١).

وجدير بالذكر أن هذه العصبية كانت نذيرا بخطر لم يلبث أن استشرى في الدولة الأموية، فهدم أركانها، وعجل بسقوطها، فالأمويون - وإن استنصروا بالعصبية على خصومهم - لم يلبثوا إلا قليلا حتى استنصرت بها بعضهم على بعض..

وطبيعي ألا يسلم بنو أمية بمسلكهم هذا من إثارة وإغضاب ، هذا إلى ما تجره تلك العصبية من شرور ومخاطر. وقد تحقق ذلك، فسرعان ما صارت العصبية مرضا في المجتمع، ونجست عنها فتن وتورات آذنت بنهاية الدولة وظهور الدعوة لبني العباس. وقد أئذ نصر بن سيار والى خراسان هشام بن عبد الملك بقوله^(٢):

أرى خلل الرماد وميض نار ❁ ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ❁ فإن النار بالعودين تذكى
فإن لم تطفئوها تجن حربا ❁ مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعري ❁ أيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما ❁ فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى ❁ على الإسلام والعرب السلام

(١) المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي في العصر الأول د.عزيز فهمي ٤٤. دار المعارف.

(٢) مروج الذهب ٢٥/٢٠. والعقد الفريد ٢٤٠/٥.

وقد أتتج لبني العباس أن يبثوا دعواتهم فى هذا المجتمع الممزق الساخط، فأخذوا يشهرون ببني أمية، واستغلوا حنق بعض القبائل المتزايد على بني أمية .. وفى وسط هذا المجتمع الذى تصطرع فيه أمواج الفتن ويموج بالخلاف والانقسام، لم تكن إلا جولة أو جولات حتى تهدم صرح بني أمية وقام صرح بني العباس.

(٢) الخوارج

عرفت الخوارج بألقاب عديدة^(١)، وأشهر هذه الألقاب هى "الحرورية" و"المحكمة" و"المارقة" و"الشرارة".

وأشهر اسم عرف به هؤلاء الناس هو الخوارج، وقد صار علماً مميزاً لهم من غيرهم من الفرق الإسلامية، ولعل شهرته على الأسماء الأخرى جاءت من اتفاق الجميع على استعماله وإشاعته، ثم إن الخوارج أنفسهم تمسكوا بهذا الاسم واعتزوا به، لأنه يمثل فى نظرهم الخروج فى سبيل الله.

وقبل موقعة صفين كان الخوارج من أنصار على وشيعته المقربين، وكان لهم على الكفاح مع على جهاد مبرور وبلاء مشكور، ولكن بعد أن استقر رأى على قبول التحكيم نفروا من على وخرجوا عليه وتغير رأيسهم فيه، فسموا منذ ذلك الوقت بالخوارج، لخروهم كما قال الشهرستاني^(٢) على الإمام الحق الذى اتفقت عليه الجماعة.

(١) الخوارج فى العصر الأموى د.نايف معروف: ١٨٧ وما بعدها.

(٢) الملل والنحل ص ١٠٥ مطبعة مخيمر ١٩٥٦ م. وأنب الخوارج، سبيل القلماوى ص ٥ لجنة التأليف والترجمة والنشر.

وتقرم نظريتهم فى الخلافة على أساس أن الخليفة يجب أن يكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا تم اختيار الخليفة صار رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله وإلا يجب عزله.

ولا شك أن معاوية كان أبعض إلى الخوارج من على ، لما كانوا يعتقدونه فيه من العبث بأموال المسلمين، وفوق ذلك فهو لم يصل إلى الخلافة عن إجماع من المسلمين ، وإنما وصل إليها على جسر من المكر والدهاء.

وقد حكم الخوارج بتكفير على ومعاوية ومن ناصرهما بعد التحكيم، لأنهم حكموا بغير ما فى كتاب الله ، إذ عدلوا عن تحكيم الله إلى تحكيم الناس وأوجبوا الخروج عليهم وقتالهم ، ولذلك أشادوا بعبد الرحمن بن ملجم قاتل على بن أبى طالب ، وقال فيه قائلهم: (١)

يا ضربة من منيب ما أراد بها ﴿﴾ إلا ليبلغ من ذى النرش رضوانا

إنى لأذكره يوماً فأحسبه ﴿﴾ أوفى البرية عند الله ميزاناً

ولعل خير ما يصور عقيدتهم ما قاله واحد منهم وهو "أبو حمزة الخارجى" فى وصف أصحابه. يقول : "شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غيبة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاق سهر، ينظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه.

(١) الملل والنحل ١٥٩/١ .

موصول كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء فكم من عيش في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله^(١).

وقد ظلت الخوارج على رأى واحد من لدن فارقوا عليا إلى أن كان من أمرهم ما كان مع ابن الزبير وتفرقهم عنه .. فيبعد أن كانوا كتلة واحدة يجتمعون على رأى واحد، شجر الخلاف بينهم، وأصبحوا فرقا يتبرأ بعضها من البعض الآخر^(٢). ومن هذه الفرق الأزارقة والصفرية والنجدية والإباضية والبيهسية.

هذا ولم يقف انقسام الخوارج عند هذا الحد، بل جاوز انقسامهم الحدود الاجتهادية المألوفة.. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن قضية الاجتهاد عندهم لم تكن قد توضحت معالمها أو حددت شروط ممارستها.

(١) البيان والتبيين: ١٢٥/٢ .

(٢) انظر الكامل للمبرد: ٨٩١/٣ .

أما ما كان من الخوارج في تحركاتهم ضد الدولة الأموية، ومما كان من الأمويين في مقاومتهم، فلا شك أن الخوارج لم يكونوا راضين عن المعاهدة التي أبرمت بين الحسن ومعاوية، وتمنوا القضاء على هذه الدولة، إلا أن الاستقرار الذي نعمت به الدولة الأموية بعد تنازل الحسن عن الخلافة يعد العامل الأول في الحد من خطورة الخوارج وتقليص نفوذهم، كذلك لا نغفل ما كان لولاية العراق مسن دور حيال الخوارج، فقد استطاعوا أن يحولوا دون تصاعد أمرهم طوال عهد معاوية^(١).

ومن ينظر في تاريخ الخوارج يجد أنهم لم يكفوا لحظة واحدة عن محاولاتهم إسقاط حكم بني أمية، إلا أنهم كانوا يحاربون خصومهم فسي جبهات مختلفة، ولو أتىح لهذه الفرقة أن تعمل تحت إمرة واحدة، ووفق خطة متكاملة لتجنبت الكثير من الـهزائم التي منيت بها، ولاستطاعت بالتالي تحقيق الكثير من التطلعات السياسية التي كانت تتطلع إليها.

(٣) الشيعة

لم تظهر الشيعة بالمعنى الحزبي إلا في عهد عثمان بن عفان حينما قام عبد الله بن سبأ اليمنى اليهودى الأصل بإظهار التعصب لآل البيت ووضع أسس مذهب التشيع، والانتقال في البلاد الإسلامية يحرض على عثمان ومعاوية ويظهر مساوئ بني أمية.

(١) يلاحظ البداية والنهاية: ١٤/٨ . القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ولما قتل عثمان بن عفان ، عرض الثوار الخلافة على علي بن أبي طالب فأبى ، ثم استعانوا عليه بالأنصار والمهاجرين فقبل ، وأصبح خليفة المسلمين ببيعة اشترك فيها من كانوا بالمدينة من أهل الكوفة والبصرة ومصر ومن كانوا بها من المهاجرين والأنصار . وقد رفض بيعة علي كثير من أنصار عثمان وفي مقدمتهم السيدة عائشة رضى الله عنها ، ثم انضم إليها طلحة والزبير ، وما لبثوا إلا قليلا حتى تجمعوا وقصدوا قتال علي وصحبه في البصرة (١) .

وقد التقى الفريقان في موقعة الجمل وقتل طلحة والزبير ، وبعد المعركة ارتحل علي إلى الكوفة قبليته ، وبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية فلم يقدر لها النجاح ، ثم كانت موقعة صفين والتحكيم (٢) .

وقد انتقل الإمام علي إلى العراق واختار الكوفة مركزا له وينبوعا لدعوته وعاصمة لخلافته ، وصارت العراق والكوفة بخاصة موئل الشيعة ومنبع التشيع ، ومصدر الثورات على بني أمية .

وقد شق المحكمة (٣) عصا الطاعة على علي ، ولم يبق إذن حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا كلهم حزبه في حرب معاوية وحزبه ، ثم كان من نتائجهم عن نصره علي حتى قتل وليس له شيعة في العراق كشيعة معاوية في الشام .

(١) انظر الطبري : ١٦٨/٥ وما بعدها ، الطبعة الحسينية بمصر .

(٢) انظر الدولة الأموية د. الطيب الشار : ١٩ وما بعدها .

(٣) انظر فجر الإسلام ، أحمد أمين : ٢١٦ وما بعدها . النهضة المصرية ط ١٢ ١٩٨٧ .

وبعد مقتل على أصبح التشيع مقصورا على أتباعه مع تفاوت فيما بينهم وقد ندم هؤلاء على تفریطهم فى مقتل على ، فأخذوا يغالون فى حبه وتعظيمه وإكباره عزاء لما قدموا له من الإساءة فى حياته ، وعلى هذا النحو كان عداؤهم لبني أمية ، فقد ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للثورة عليهم^(١).

ولما قتل الإمام على راجت الدعوة لابنه الحسن وبايعه أهل الكوفة وأخذ يستعد لقتال معاوية ، لكن معاوية - وكان أشد ميلا إلى الحرب - قد سار إليه ، فوجد الحسن أنه لا طاقة له بنزال معاوية وبخاصة بعد خذلان قومه له فتصالح معه على أن يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية على أن يكون الأمر شورى بعد معاوية ، وغادر الحسن الكوفة إلى المدينة وعاش بها حتى مات سنة ٤٨ هـ - ٦٦٨م^(٢).

وأخذ الأمويون يطيحون بأهل الشيعة حتى ضعف أسرهم وظلوا أيام معاوية يقصرون تشيعهم على النظر والعقيدة لا على الحروب والثورات ، إلى أن قتل الحسين بن على وبعض أصحابه ، فأخذ الشيعة يتحمسون لنصرة مذهبهم ، وأعلنوا التمرد فى عهد عبيد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ فى حركة سميت حركة التوابين ، فلما كان عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين .. إلا أن كل هذه المحاولات باءت بالفشل وبقيت الشيعة مذهباً عقائدياً إلى أن قامت دولة بني العباس^(٣).

(١) انظر الدولة الأموية فى الشرق د. الطيب النجار ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) الكامل لابن الأثير : ١٧٥/٣ . والبدية والنهاية ١٤/٨ .

(٣) انظر أعيان الشيعة ، السيد حسن الماملى ج ١ ص ١٦ - ١٩ مطبعة ابن زيدون دمشق ١٣٥٤ .

وتقوم عقائدهم فى أصولها على فكرة الإمامة والإمام ، وهم يجمعون بفرقهم المختلفة على مشايعة على وإمامته ، ويرى جمهور الشيعة نفس الرأى فى أولاد على وقد وجدت هذه العقيدة رواجاً شديداً وذبوعاً واسعاً بين كل من تشيع للإمام على^(١).

ولا يتسع المقام لإحصاء المذاهب والفرق الشيعية وتتبعها ، وبيان معتقدات كل منها وما بينها من خلاف ، فكل ما يعيننا هو إبراز الشيعة كحزب وبيان شأنها السياسى ، وما كان لها من نضال مع الفرق الأخرى امتد أثره إلى الشعر السياسى .

وقد قرن أدب الشيعة بحب أهل البيت ، وعللوا لهذا الحب بأنة تابع لحب الله تعالى ، ولذلك بكوا على أئمتهم بكاء حاراً ، وحملوا على خصومهم واتهموهم بالجور والاعتصاب والحيدة عن الدين .

وقد مزجوا السياسة بالدين ، فشعرهم يجمع بين الحرب وفكرة السياسة التى دعتهم إلى الحرب ، حتى خرجت أشعارهم صدى لحروبهم مع الأمويين ، وقرأ أشعار الكميث بن زيد الأسدى فستجدها تصور لك حروب الشيعة ويطولة أبطالها وشجاعتهم ، ثم تجد الدموع المسكوبة حزناً على مقتل أئمتهم فى ظلم وعدوان .

(١) انظر توضيح ذلك : الفرق الإسلامية دنعمان القاضى : ١٤٢ وما بعدها .

(٤) الزبيريون

ينسب هذا الحزب إلى زعيمه عبد الله بن الزبير بن العوام الصحابي ابن الصحابي ، وقد كان ابن الزبير رجلاً طموحاً يحب المجد والسلطان ، وكانت الخلافة أملاً من آماله ولكنه لم يفكر فيها تفكيراً فعلياً إلا بعد أن أعلن معاوية البيعة لابنه يزيد فأخذ يدعو لنفسه بمكة سنة (٦١ هـ - ٦٨٠ م) وبإيعاع الناس فيها بالخلافة .

ومنذ ذلك الوقت ولد حزب جديد من أحزاب المعارضة التي قامت في وجه الأمويين وهو حزب الزبيريين .. وكان هذا الحزب شديد الخطورة على الدولة الأموية ، ولو أن زعيمه قد أحسن استغلال الفرص التي أتت له لاقتلع هذه الدولة من أساسها ولكنه كانت تواتيه الفرص فيضيعها الأمر الذي أدى إلى أفول نجمه بعد زمن غير طويل^(١).

وقد اعتمد الحزب الزبيرى في الدعوة إلى عبد الله بن الزبير على أمور منها أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر يوم التقيفة ، وعبد الله أكفأ من يتولاها بعد أن مات معاوية ، يضاف إلى ذلك أن عبد الله يمت بصلة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى ذلك فهو ابن أسماء بنت أبي بكر ، وكان في المدافعين عن عثمان بن عفان وقت الحصار .. وهو رجل اشتهر بالتقوى والصلاح ، على حين اشتهر منافسوه من بنى أمية بالخلاعة والمجون مما أسخط جمهور المسلمين عليهم^(٢).

(١) انظر الكامل لابن الأثير : ٣٤٨/٤ وما بعدها .

(٢) بتصرف من أدب السياسة في العصر الأموي د. الحوفي ١١٦،١١٥ .

وقد جهر عبد الله لنفسه بالدعوة بعد مقتل الحسين ، فأخذ أهل المدينة يثورون على الأمويين ، وطردوا مروان بن الحكم وسائر بنى أمية سنة ٦٣ هـ ، فأرسل يزيد جيشا بقيادة مسلم بن عقبة إلى المدينة وكان قتال شديد انتصر فيه مسلم ، وقتل عددا كبيرا من خصومه ، وأجبر الناس على البيعة ليزيد^(١) على أنهم خول له أن يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلبيهم من شاء ، فمن امتنع من ذلك قتله .

ولم يلبث ابن الزبير أن انضمت أغلب الأمصار الإسلامية إليه ، فقد استجاب أهل البصرة له ، وأخذوا يطلبون منه أن يرسل إليهم أميرا من قبله يأخذ البيعة له ، وكذلك كان الحال في الحجاز واليمن ومصر والشام .. وهذه كلها بوادر تدل على أن النصر يوشك أن يحالف ابن الزبير ، وزاد من تلك الخطورة أن بنى أمية بالشام كلنوا منقسمين على أنفسهم ، ولم يتفقوا على رأى حاسم فى أمر الخليفة الجديد بعد معاوية بن زيد ، إلا أن ابن الزبير لم يعرف كيف يستغل هذه الفرصة الطيبة . ولو عرف لاضطر الأمويون إلى الإذعان والتسليم وغدا بن الزبير بذلك خليفة المسلمين غير منازع .

ولم يطل الخلاف والشقاق الذى نشب فى حزب بنى أمية فسرعان ما أفاقوا لأنفسهم واجتمعت كلمتهم وولوا مروان بن الحكم الخلافة وأصبحت الشام مسرحا لحزبين كبيرين حزب الأمويين وحزب الزبيريين وقد اقتتل الفريقان قتالا شديدا فى موقعة "مرج راهط"

(١) الكامل لابن الأثير : ١١٨/٤ .

وهزم فيها أنصار الزبير سنة ٦٤هـ ، مما ألمّ النفوس وترك فيها
جرحا لا يندمل أثره ، وفي ذلك يقول زفر بن الحارث من أنصار
الزبيريين (١) :

أرينى سلاحى لا أبالك إننى
أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ففى العين منجاة وفى الأرض مهرب
إذا نحن رفعنا لهن المثنائيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا
ولا تفرحوا إن جئتم بلفائيا
فقد يتبّت المرعى على دمن الثرى
وتبقى حزازات النفوس كما هيا
لعمرى لقد أبقت وقية راھط
لحسان صدعا بيننا متنائيا

وظل ابن الزبير فى صراع مع الأمويين إلى أن لاحت نهايته
على إثر هزيمة جنده فى العراق ، إذ أسرع عبد الملك وأرسل قائده
"الحجاج بن يوسف الثقفى" فى جيش إلى مكة للقضاء عليه ، فحاصرها
وضرب الكعبة بالمنجنيقات فاحتزقت (٧٣هـ - ٦٩١م) ، واضطر
أنصار ابن الزبير إلى التخلّى عنه ، وظل يقاوم إلى أن قتل
سنة ٧٣هـ ، فاستراح كل من الأمويين والخوارج من هذا الحزب
المناوئ .

(١) الطبرى : ٤١/٦ . والكامل لابن الاثير : ١٥٢/٤ .

وشعر الزبيريين سجل واضح لأحداثهم ، فهو يدعو إلى الثورة على بنى أمية ، ويتمنى الخلاص منهم ، وكثيراً ما ينذرهم ويريش لهم سهام الوعد والوعيد والتخويف والتهديد. ومن ينظر فيما تخلف عن موقعة مرج راهط من شعر لفريقي بنى أمية والزبيريين يرى مدى تمسك كل منهم بعصبيته وإصراره على الانتقام من خصومه ثم يرى تمسك الزبيريين بالطاعة لابن الزبير، وابتهاجم به.

ثانياً : تحليل النصوص الأدبية

تحليل النصوص الأدبية هو تفسيرها، وتحليلها، وتعليلها، وإظهار ما فيها من قيمة تمهد السبيل إلى التعرف على مظاهر القوة، وأسباب الضعف في النص الأدبي.

وهذا العمل وظيفة جليلة الشأن ، عظيمة القدر ، تعود بالفائدة على النص الأدبي من جانب ، وعلى الأدباء والنقاد ، والناشئة من جانب آخر ، ومن أجل هذا ينبغي أن يقوم بهذا العمل ناقد أدبي له من القدرة على التدقيق نصيب كبير ، وله من القدرة على الحياد في إصدار الأحكام الأدبية نصيب كبير كذلك ، وفوق هذا وذاك لديه موقور من العلوم والمعارف ، والثقافات ، التي تتطلبها عملية النقد الأدبي.

وإذا كان المبدع يبذل جهداً في إبداعه ، فإن النص الأدبي يحتاج لتدقيقه وفهمه إلى قدرة خاصة وجهد خاص ، وهذا يؤكد أن تدقيق الأدب متوقف على القراءة المتأنية ، وعلى طبيعة خاصة في الناقد ، وهذا يدفع بنا إلى الحديث عن أدوات الناقد ، ومنهجه في التحليل والدراسة الأدبية للنص الأدبي.

أدوات الناقد

عرفنا أن النقد يبحث عن الخصائص الفنية ، وأنه يميز القيم الأدبية في كل عمل من الأعمال التي يتناولها. وحتى يكون الحكم على الآثار الأدبية صحيحا ومقبولا ، وحتى يستطيع الناقد أن يؤدي فائدة للحياة الأدبية لا بد أن تكون لديه أدوات تمكنه من أن يؤدي - وظيفته خير أداء ، ومن هذه الأدوات :

١- الثقافة :

وحيث نتحدث عن الثقافة اللازمة للناقد فإننا لا نستطيع أن نفرق بأى حال من الأحوال بين الثقافة اللغوية والثقافة الأدبية والثقافة بمعناها العام.

فالثقافة اللغوية تعين الناقد في معرفة الألفاظ ووسائل صياغتها ، وما يمكن أن تؤديه من المعاني ، وما تحملته من معان على مر الزمان ، كما تعينه على معرفة أنواع التصرف والمجاز التي اصطنعها أصحاب اللغة أو جماعة الأدباء .. ذلك كله هو سبيل النقاد الوحيد للحكم الصحيح.

والحقيقة أنه قد أشار كثير من نقادنا القدامى إلى ثقافة الناقد ورأوا أنها القاعدة التي يمكن أن ينطلق فيها كل فن متقن وكل نقد صوابي ، وهذه الثقافة هي التي تؤهل الناقد - أكثر من غيرها - لعملية التصدي لدراسة الإبداع ، وإعطاء أساس نقدي سليم^(١).

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٠ و ١٨٤ طبع في مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة برييل ١٩٠٢م وانظر كذلك طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٥ وما بعدها ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة.

ولسنا فى حاجة إلى الإبانة عن الطريق التى تحقق للناقد تلك الثقافة^(١)، فهى طرق كثيرة ومتعددة ، منها كثرة الاطلاع وإدانة النظر فى الآثار الأدبية ، فهذا هو السبيل الذى يوصل إلى العلم بالأدب ، ويتخرج به الناقد المتخصص الذى يكون رأيه أدعى إلى الاحترام.

يروى الأمدى فيقول :

"قيل لـخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشئ من الشعر ، وتقول:

هو ردىء والناس يستحسنونه !

فقال : إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فاجهد جهدك

أن تتفقه فانه لا ينفك قول غيره : إنه جيد.

وقد عقب الأمدى قائلا :

"من سبيل من عرف بكثرة النظر فى الشعر والارتياض به وطول الملايسة ويقبل منه ما يقوله ، ويعمل على ما يمثله ، ولا ينازع فى شئ من ذلك ، إذ كان من الواجب أن يسلم لأهل كل صنعة صناعتهم ، ولا يخاصمهم فيها ، ولا ينازعهم إلا من كان مثلهم نظيرا فى الخبرة وطول الدربة والملايسة"^(٢).

(١) ليس مقصودنا من وجوب الثقافة النقدية أن يلتزم الناقد بكل رأى سلف ، أو أن يكون مقدا لمن سبقوه فى النقد ، كلا فمثل هذا العمل يقضى على شخصية الناقد ، ويحد من حريته.
(٢) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحتري : ٤١٤/١ ، تحقيق السيد أحمد صقر . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م.

ومن الثقافة اللازمة للناقد الأدبي المعرفة بأصول النقد وقواعد الأدب ، والمعرفة أيضا بالمدارس الأدبية والمذاهب النقدية واتجاهات كل منها ، والوقوف على التراث النقدي الذى خلفه النقاد القدامى الذين سبقوه ، إذ الحال أنه لا توجد صناعة من الصناعات إلا ولها ثقافة من جنسها ، وإفادة من التجارب والخبرات التى سبقتها.

ومنها كذلك المعارف الأدبية والإلمام بالعلوم والفنون ، ومعرفة حياة الأدباء وبيئاتهم وثقافتهم ، ونوازعهم ، وسائر العوامل المؤثرة فى تكوين عملياتهم وتوجيه عواطفهم.

٢- الموهبة :

لا شك أن الموهبة ضرورية فى الفنون ، وهذه الثقافات المتوفرة للناقد مع ما لها من أثر فى صناعة النقد لا تجدى نفعا إذا لم يساندها طبع أصيل وموهبة فذة ، إذ بدون الموهبة لا ينبغ فنان ولا يصح فنه.

على أن الموهبة على خطرها ، وبعد أثرها لا تكفى ما لم تصقل بثقافة العصر ، والدراية الكاملة بما يجرى فى المحيط الفنى من تيارات ومدارس ومذاهب ، ومن الضروري أن يطلع الناقد على كل هذه التيارات ويحيط بها ، لتتقيد موهبته وليتناول فنه حين يتناول وهو واع بثقافة العصر ومحيط بمستحدثاته ، فى هذا المجال ، ويعالج كل ما يعرض له بثقة وإقتدار ، إذ لا شك أن الذوق المدرب والمتقف هو خير وسائل الحكم النقدي ، ولا يخفى على أحد أن الناقد الخالى الوفاض من كل تلك المعارف يكثر زله ، ويكون ضرره فى الحياة الأدبية أكثر من نفعه.

٣- والذي ننشده في الناقد الموضوعي :

أن يتوفر له ما ينبغى للقاضي من أدب النفس ، وتزكيتها
بالفضائل الإنسانية ، من عدالة وإنصاف وعفة ، وأن يكون قادرا
على التحكم في نوازع نفسه وأهوائها ، حتى لا يجرفه شعور الحب إلى
الإسراف في الثناء ، ولا شعور العداوة على النيل من الأعمال الجيدة.

إن النقد الأدبي السليم هو الذي يضع العمل الأدبي موضعه
الجدير به ، وهو دون شك عمل من الأعمال الإيجابية البناءة في صوح
الحياة الأدبية ، فإذا تكب الناقد الطريق ، وفقد روح العدالة وحب
الإنصاف ، فإن هذا يعتبر خيانة ، للأمانة التي حملها ، والرسالة التي
لم يقدرها حق قدرها ، هذا فضلا عن أن عمله هذا يخفي وجه الحقيقة
التي هي مطلب كل إنسان عاقل رشيد.

ومن هنا نجد أن النقد الأدبي له قيمة لا ينكرها أحد ، كما أن له
أثرا في الأديب المنشئ ، وفي القارئ للأدب.

يقول الدكتور/ ماهر حسن فهمي :

"وإذا كان الأدب صورة الحياة بما يرسمه لها من معالم قوية
بارزة وبما يلقى من ضوئه الخالد على جوانبها المظلمة ، فإن النقد هو
الجانب الآخر لصورة الحياة بتصحيحه لبعض أجزاء الصورة أو تكميله
لها ، أو توجيهه للفنان نفسه ، أو عرض صورته للناس.

والقارئ لا شك حين يطلع على النقد ، يضم إلى تجاربه تجربة جديدة لفرد أكثر تجارب وأرشد عمقا وأوسع ثقافة^(١).

ويقول الدكتور/ شوقي ضيف :

"نحن لا نشك في أن نقد الآثار الأدبية شئ صعب ، لأنه لا يعتمد في جوهره على قواعد مقررة ثابتة ، ولأنه يحتاج إلى ذكاء ومهارة في العرض ، فلا يكفي أن يكون الإنسان دارسا لنظريات النقد الحديثة ومناهجه ، بل لا بد أيضا أن يكون من دقة الذوق وجمال الأداء بحيث يصوغ نقده صياغة تروق القارئ ، وخذ مثلا تجربة كيميائية يعرضها علماء مختلفون فإن كل عالم كيميائي يعرضها بنفس الطريقة ، إذ يسجل نفس الظواهر ونفس النتائج ، وهذا ما لا يحدث في النقد ، فلعل ناقد عرضه ، ولكل ناقد ذوقه وطريقته في الأداء. ويتفلوت النقاد في ذلك حسب قدرتهم الأدبية ، ومهاراتهم ، وحساسيتهم، ووعيهم بما يتطلبه الموضوع منهم وعيا يجعلهم ينوعون طرقهم كلما ألموا بأثر أدبي.

وما أظن صفة ينبغي أن يتحلى بها الناقد تبلغ صفة العدالة في وزنها وقيمتها ، إنه حكم أمين ، فينبغي أن يضع في يده موازين عادلة ورشيدة لا تميل مع أى هوى ولا أى تعصب ، ومن أجل ذلك كان حريا به أن لا ينقد أثرا أدبيا لا يتفق ومثله في الحياة حتى لا يجوز عليه في حكمه وتقديره. والناقد الحق لا يرفع شيئا فوق قيمته ، ولا ينزل شيئا دون قيمته ، وإنما يحق الحق للصديق وغير الصديق ، فلا يثنى إلا في مكان الثناء ، ولا يزرى إلا في مكان الإزراء وتلك مسئولية عليه أن يتحمل تبعاتها ، وينهض بها في غير تقصير^(٢).

(١) المذاهب النقدية ص ٥. دار الطباعة الحديثة ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢م.
(٢) في النقد الأدبي ، ص ٥٧.

ويقول الأستاذ أحمد أمين :

"فالناقد كثيرا ما يعطينا وجهة نظر جديدة تماما ، وكثيرا ما يؤدي مساعدة خاصة بأن يترجم إلى تعبير محدد ، احساسات لنا كنا نحس بها إحساسا مبهما غامضا ليس له قيمة علمية ، فهو أحيانا مستكشف يستكشف أرضا جديدة ، وهو أحيانا رفيق صديق يدلنا على جوانب غير منظورة من الأشياء التي نمر بها في طريقنا حتى من تلك التي نعرفها معرفة جيدة. وهكذا يعلمنا أن نقرأ ثانية لأنفسنا بذكاء أعظم وبتقدير أعمق ، ثم ليس هذا كل شيء ، فإنه كثيرا ما يؤدي لنا أعظم المساعدة حين يتحدى أحكامنا الخاصة ويعارض آراءنا التي سبق أن كوناهما ، ولا يقتصر على التعليم بل الإثارة والاستفزاز ، فإذا قرأناه كما يجب أن نقرأ الأدب الذي يتناوله بعقل حاضر منتبه فطن ، فإنه لن يكون أمرا هاما ، هل نحن نوافق ما يقوله لنا أم نرفضه. ففي كل حالة سوف نكسب من تناوله في عمق النظرة وفي القوة"^(١).

ويقول الدكتور محمد السعدى فرهود :

"ولا نقبل أن يرسل الناقد نقده على هواه ، أو يغفل التراث النقدى ، فإن للبشرية منذ عهد الإغريق نظرات ناقدة نافذة ، ما تزال إلى اليوم مرادا لطلاب المعرفة ، ومجالا للنقاش والجدل. ولا نريد أن نفرض على الناقد أن يلم بالتراث النقدى كله ، إذ يكفي أن ينتقى من

(١) النقد الأدبى ، ص ١٧٩ ، القاهرة ١٩٤٤م.

هذا التراث ما يصنع له منهجا نقديا ، وحبذا أن يقتنع بأن مسلكه حينئذ ينقد - ونقصد مسلكه العلمى - لا غبار عليه. ولا نمنع أن يجتهد الناقد فيبدي وجهة نظر جديدة ورأيا مبدعا ، فهذا من حقه ، وإنما نمنع أن يضيع الناقد ذلك التراث النقدى ، لنزوة أو لرغبة تتسلط عليه. ومن هنا نستطرد إلى القول بأنه من غير المقبول لدينا - ولدى أى منصف - أن نستجيب للدعوات التى تدعونا إلى أن نقطع صلتنا بالبلاغة العربية وبالأعمال النقدية العربية القديمة ، بحجة أن وجهات نظر جديدة قد ظهرت فى أوروبا ، فعلىنا أن ننقلها إلى ميدان أعمالنا النقدية. ولا نظن أن تلك دعوات مستوية ، ولا أن هذه حجة غير منقوضة ، فمن الصعب أن نلغى - أو نهمل - مئات السنين من عمرنا الفكرى ، بل إنه أولى لنا أن نعيد فى تراثنا النقدى العربى نظراً ، لعلنا نقف فيه على ذخيرة ، نعيد صياغتها ، أو زادا تفاخر به ...»^(١)

ثالثاً : مناهج تحليل النص الأدبى

النقد الأدبى هو تقدير النص الأدبى تقديراً صحيحاً ، وبيان قيمته ودرجته الأدبية ، وعلى هذا فإنه وإن كانت طبيعة النقد واحدة أو تكاد ، فإن النقد الأدبى يختص بالأدب وحده ، ويدل هذا التعريف على عدة ملاحظات نذكر منها :

١. أن الهدف الأساسى من النقد الأدبى إنما هو تقدير الأثر الأدبى ببيان قيمته فى ذاته قياساً على القواعد أو الخواص العامة التى يمتاز بها الأدب بمعناه العام أو الخاص.

(١) قضايا النقد الأدبى الحديث ، ص ٦٠.

٢. يدل هذا التعريف على أن النقد يبدأ وظيفته بعد فراغ الأديب من إنشاء الأدب المراد نقده ، فالناقد يتقدم للأدب الموجود بالفعل ، ويأخذ بتفهمه ، ويفسره ، ويحلله ، ويقدره وعلى هذا فالنقد وإن كان يزيد الأدب تهذيباً وصقلاً فإنه ليس بمكنته إيجاده من العدم ، وإن كان الإنصاف يقتضينا القول إن عملية إبداع الأدب وتدوقه ونقده قد تتحقق في نفس أديب واحد موهوب موهبة خاصة.

٣. لا بد للناقد الأدبي - لكي يستطيع أن يؤدي وظيفته خير أداء - أن يكون على معرفة باللغة وأساليب التعبير بها ، وأن يكون واسع الاطلاع في الثقافة الأدبية ، وأن يكون كذلك ثاقب النظر ، مهذب الذوق ، قادراً على المشاركة العاطفية مع الأديب .. ولسنا في حاجة إلى الإبانة عما تحققه مثل تلك المعارف والصفات للناقد من الفوائد.

٤. وإذا كان للذوق الأدبي اتصال وثيق بما يصدر الناقد عنه من أحكام فإننا يمكننا أن نقول إن للذوق الأدبي دخلاً قوياً في باب النقد ، وهو عدة الناقد ووسيلته الأولى ، وإليه يرجع إدراك جمال الأدب ، والشعور بما فيه من ضعف ، وإليه أيضاً نلجأ في تحليل ذلك وتفسيره ، وبه نستعين في اقتراح أحسن الوسائل لتحقيق خواص الأدب الرفيع المؤثر وفوق ذلك كله يمكننا أن نقول إن ما ينشئه الأديب إنما هو في الوهلة الأولى ثمرة ذوقه الأدبي.

وقد اصطلح المحدثون من علماء الأدب على تقسيمه إلى قسمين :

١- الأدب الإنشائي :

وهو مجموعة الأعمال الأدبية التي يولفها الأديب شاعرا كان أم كاتباً. فالقصيدة التي ينظمها الشاعر ، والخطبة التي يلقيها الخطيب على جمهور من الناس ، والمقالة التي يكتبها الكاتب في موضوع من الموضوعات وكذلك القصة وغيرها .. كل هذه من الأدب الإنشائي ، فكل أديب من هؤلاء الأدياء ينشئ أدبه لينفَس عن نفسه بالتعبير عن تجربته ، وليشارك غيره في عواطفه وانفعالاته ، ذلك لأنه يجد في مشاركته الشعورية للآخرين راحة لنفسه ، وإرضاء لمشاعره ، وقد يعمد الكاتب إلى إبراز الخصائص والمعالم التي تتميز بها شخصية من الشخصيات التي يختارها موضوعاً لبحثه ، وهذا لون من ألوان الأدب الإنشائي ، ويسمى "السيرة الذاتية".

٢- الأدب الوصفي :

إذا فرغ الشاعر من نظم قصيدته ، أو الكاتب من إنشاء مقالته ، وكذلك الخطيب ، والقصاص ، والمؤلف المسرحي ، فإن هذه الأعمال تعرض بعد ذلك على جمهور المتلقين بقصد التأثير فيهم ، وتوجيههم الوجهة التي يرضاها الأديب .

وليس من شك في أن هذه الأعمال تقع من نفوس المتلقين مواقع مختلفة ومن هؤلاء المتلقين من يحاول التعبير عن رأيه بالكلمة ، وهو في عبارته يفسر ، ويحلل، ويعلل ، وقد يبين ما في العمل الأدبي الذي قرأه من مزايا وجودة ، أو رداءة وعيوب ، ويأخذ يعمل على إقناع قارئه بما اقتنع هو به ، ليحمله إلى التأثر بما أثاره، فيشاركه الرأي بما يورد من الأسباب والبراهين.

ومن فنون الأدب الوصفي ما يسمى (تاريخ الأدب) وفيه يفتن الكاتب في رسم صورة واضحة للحياة الأدبية في عصر من العصور ، أو في بيئة من البيئات ، أو في طور من أطوار الحياة الإنسانية ، أو من خلال اتجاه فني معين ، أو طريقة معينة من طرق التعبير التي يتناول بها الدارسون الأعمال الأدبية ، وقد يلجأ الكاتب إلى رصد مراحل الحياة الأدبية ، ودراسة العوامل الزمانية والبيئية التي أثرت في حياة الأدب والأدباء إن ازدهارا وقوة ، أو انحدارا وضعفا .

وفي ضوء مثل هذه الدراسات يمكن رد العمل الأدبي وصاحبه إلى الزمان والبيئة ، فيصبح مرجعا لمن أراد أن يتعرف على ما كان للسابقين من أعمال أدبية من جهة ، وعلى ما بين هذه الأعمال من الصلات التي تقرب بعضها من بعض ، والخصائص التي يتميز بها بعضها عن بعض من جهة أخرى ، وهذا بلا شك جانب له أهميته في جلاء نواحي الأصالة في الأدب أو الأديب ، ثم في الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهاته ، وهذه التأثيرات هي محور دراسات كثيرة ، وعلى وجه الخصوص في عهد نهضتنا الحاضرة .

وليس من شك في أننا لاحظنا منذ وقت مبكر التطور الهائل الذي طرأ على الدراسات الأدبية بشكل كبير ، فقد ظهرت دراسات يمكن أن نعتبرها دراسات أدبية جديدة تحتفل بالمنهج الجديد ، وتتأثر بالمنهج الحديثة في الدراسات الأدبية الحديثة وخاصة في المناهج الأدبية الأوروبية ، ونحن لا نغفل أن أصحاب هذه الدراسات قد أتت لهم أن يحتكوا بأداب الغرب ، وأن يقفوا على مناهجهم في الدراسات الأدبية وغيرها^(١).

(١) انظر تطور النقد العربي الحديث في مصر ، د/ عبد العزيز السوقي ، ص ١٧٥ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ .

وعلى ضوء ذلك كله يمكننا أن نقول إن النقد جنس من أجناس الأدب ، وهو لون من ألوان الأدب الوصفي ، يختلف عن الأدب - الإنشائي الذي ينشئه الأدباء المنشئون ويألفونه ، وفيه - أى النقد - يعبر الناقد عن رأيه فى العمل الأدبى ، ويرى فيه الجودة أو الرداءة .. وعلى هذا فموضوع النقد هو الأدب نفسه : القصيدة التى ينظمها الشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره ، والمقالة التى يكتبها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى تشغله أو تشغل الناس ، والخطبة التى توجه الناس الوجهة التى يرضاها الخطيب وكذلك المسرحية والقصة والسيرة الذاتية .

والذى يعنينا من هذا كله أن الناقد لا يقدم على تفسير أو تعليق إلا بعد أن يفرغ الأديب من أدبه ، وبعد ذلك يوضع هذا اللون الأدبى بين يدى الناقد ، فيكون مادته التى يدرسها ويتذوقها ، ويطبق عليها الأصول والنظريات التى تعلمها ، ويستفيد فى ذلك كله بتجاربه وخبراته ، ويتجارب وخبرات الآخرين ، ثم يجتهد ليضع اللون الذى يتصدى لنقده فى موضعه .

وإذا كان النقد سبيلنا لإصلاح ما فسد ، والوسيلة المثلى التى تهدى الباحثين إلى أهدى السبل وأسمى الغايات فإنه ينبغى أن يتخلص من الأحكام العامة المرتجلة ، وأن يكون نقدا مبنيا على معرفة ، وحينئذ تكتب المقالات النقدية ، وتولف الكتب فى نقد الأدباء ، وإنزال كل منهم المنزلة الجدير بها .

ومن ألوان النقد الأدبي :

١. **النقد التاريخي** : وهو لون نقدي يقف على الصلة التي بين الأدب والتاريخ ، ويتخذ من حوادث التاريخ بجميع صورته وسيلة لتفسير الأدب ، وهذا ما يسمى (بالمنهج التاريخي) .

٢. **النقد الفني (المنهج النقدي)** .

٣. **النقد الشخصي (المنهج الشخصي)** .

والنقد الفني هو أخص الألوان النقدية وأقواها لمن يريد فهم طبيعة الأدب ، وبيان عناصره ، وأسباب جماله وقوته ، وهو كما يقول الأستاذ أحمد الشايب عنه : " هو النقد حقا ، وما سواه من الطريقة التاريخية أو الشخصية تفسير ، وإن كان - بلا شك - يعين على صحة النقد ، وعلى سلامة أحكامه من الغموض والضلال " (١) .

وحيث نتحدث عن وظيفة الأدبي فإنه يجدر بنا أن نقول إن البعض قد يتعاملون على النقد الأدبي وعلى جماعة النقاد ، فيعدون النقد عملا لا غناء فيه ، ويعدون النقاد متطفلين على الأدباء الذين ينشئون الأدب ويتكرونها في أجناسه المختلفة .

ونحن إذا سلمنا بذلك لكننا قد سلمنا بخطأ كبير وهو ذهب النقد الأدبي ، يقول الأستاذ أحمد الشايب : " ماذا يحدث لو ذهب النقد الأدبي أو النقد مطلقا ؟ لا شك أن الحياة تتطوى إذ ذاك على خطأ

(١) أصول النقد الأدبي ص ١٤٥ .

كبير ، وضلال مبين ، وتخضع فى سيرها لآراء أو نظريات طائفة خاصة غير معصومة ولا متناسقة الجهود ، وتمر فائرة وقد تموت فيها المواهب وينادى بذلك الأدباء والفنيون أكثر من كل أحد ، وإلا فمن يرشدهم إلى الحق ، ويعينهم على الكمال ويصرفهم عن الضلال ، ويصل بينهم وبين الناس لعل الناس ينتفعون بالفنون والآداب نفعا سليما عميقا ، ولو ذهب النقد العلمى تعرضت الحياة لمأس مهلكة ، ونتائج زور ، وعاش الناس فى ضلال وأوهام^(١).

ويقول أيضا : "وربما كان النقد الأدبى أحق من سواه بالعناية ، لأن الأدب نفسه أكثر شيوعا ، وأمس بالحياة الاجتماعية ، وأجمع لخلاصات الجهود الإنسانية من سائر الفنون ، وهو بعد ذلك صريح واضح ، درجة الإيجاز والرمز فيه أقل منها فى الرسم والموسيقى والتصوير لذلك كان أبعد أثرا فى حياة الناس . وكان أحق بالنقد والتعقيب ، ومن بين الأدب ونقده تتجلى الحقائق وترسم المثل العليا ، وتتقدم الحياة وتصلق المواهب الإنسانية حتى قال بعض النقاد : إن الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم تعرف من آراء النقاد أكثر مما تعرف من الأدب نفسه ، أى أنه يمكن أن يعرف الإنسان من ملاحظات النقاد على الكتاب والشعراء صحة مطابقتها للأخلاق والعادات من عدمها ، لأن النقاد يرون ما لا يراه الكاتب نفسه فتكون آراؤهم أقرب إلى الصواب من آراء الكاتب ، وهذه الآراء تبين أفكار الكاتب وحكمه

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٦٩ .

على المجتمع الذى يعيش فيه . لهذا قيل : "إن الحكم على الأدب نفسه هو صورة الاجتماع ، أى أن المؤرخ الذى يريد أن يأخذ شيئاً من كتابة الأمم للحكم على مدنياتها ، عليه أن يجمع آراء النقاد المختلفة ، ويوزن بينها ليستخلص منها صورة صحيحة عن الحالة الاجتماعية"^(١).

والحق أن النقد الأدبى صناعة لا غنى عنها مطلقاً ، وهذا يدلنا على أهم الوظائف التى تقوم بها صناعة النقد ، ومن هذه الوظائف ما يخدم الحياة الأدبية بصفة عامة ، ويعمل على إثرائها وتنشيطها ، ومنها ما يخدم الفن الأدبى ، ومنها ما يخدم الأدباء أنفسهم - وبخاصة المنشئين منهم - كما يفيد القراء ، وغير ذلك .

ومن تلك الوظائف :

١- أما من جهة أنه يفيد الحياة الأدبية ، فليس من شك فى أنه يودى إلى احتكاك الآراء ، واختلاف وجهات النظر ، والأخذ والرد من النقاد الذين تختلف مقاييسهم النقدية ، كما يودى إلى تصادم أفكار الأدباء من ناحية والنقاد من ناحية أخرى ، وزيادة تعقب النقاد للأدباء .

وهذا بدوره ينشط الحياة الأدبية ، فالأدب لا يزدهر إلا بالنقاد وهم الذين يوجهونه ، وهم أيضاً الذين يسيرون المسالك للأدباء ويوجهونهم نحو الآفاق التى تشرق فيها مواهبهم ، وهذا بدوره أيضاً يجعل الأديب يبسط سلطانه على النفوس ، ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان ، ويجعله يتبوأ مكانه اللائق به بين العلوم والفنون وبخاصة فى عصرنا الحديث الذى انصرف فيه الناس إلى الماديات .

(١) أصول النقد الأدبى ص ١٦٩، ١٧٠ .

ويهمنا ان نقول فى هذا المقام ان عدة النقاد فى هذا الدور الذى يقومون به مع الأدب والأدباء تتمثل فى ثقافتهم العريضة ، وأذواقهم الرفيعة ، وعقولهم الواعية، وأفكارهم وتجاربهم التى قبسوها من حياتهم الحافلة بالاحتكاك والتصادم ، والتى أوقفتهم على كل جميل بديع ، وعلى كل ضعيف متخلف .

أما من جهة أنه يفيد الفن الأدبى والأدباء فمن الوجوه التالية :

- أ. أن النقد السليم يقوم الأدباء ، ويوجههم الوجهة الصحيحة ، وينظر فى مقدار ما وفقوا فى إبداعهم ، فإن كانوا صائبين روح لطريقتهم ووطد لها ، وإن كانوا على غير صواب نبههم للخطأ ، وأوقفهم على طريق الصواب .
- ب. أن يقدر العمل الأدبى ، ويحكم عليه بالجودة أو السرداءة وفقا للمعايير النقدية الصحيحة ، وتلك وظيفة كبرى من الوظائف التى يقوم بها النقد الأدبى ، ما دامت للفن الأدبى منزلته الرفيعة بين الفنون ، فهو فن لا بد أن يحظى بعناية بالغة توقف على روائعه ، وتبعد عنه النماذج غير الرفيعة .
- ج. أنه يفسر الآثار الأدبية ، ويحاول تحليلها وتعليلها ، ويبان الأصول اللازمة لفهمها ، كما يحلل الدوافع النفسية التى كان لها سلطان على الأديب وهو يؤلف عمله الأدبى .. وهذا كله عمل يمثل حلقة وصل بين الأدباء من جهة وبين المتلقين من جهة أخرى وقد يكون هذا النقد تسليطا للضوء على أديب مغمور لا يعرفه الناس .

وفى هذه الحالة لا تكون غاية الناقد تقويم العمل الأدبى ، أو إصدار حكم عليه ، وإنما تكون غايته أن يصل بين الناس والأدباء المغمورين ، فيمكن لمنزلتهم فى النفوس ، ويجعلهم يشتركون فى الحياة الاجتماعية مؤثرين ومثأثرين ، فيزداد نتائجهم بذلك خصبا ، يؤكد ذلك أن كثيرا من الأدباء قد يعتبرون على النقاد إن أهملوا أعمالهم أو أعرضوا عنها .

د . أنه يعكس للأدباء رأى الناس فيهم ، وهذا من شأنه أن يكمل الدائرة ، وأن يوثق بين الأديب والناقد والمتلقى ، مما يعين على الفهم ، ويساعد على الإفادة ، فإذا بالأدب يكون واضحا جميلا ، وفنا نافعا مفيدا ، وفى هذه الحالة قد يتعدى الأمر إلى اقتراح ما ينهض بالأدب ، ويوسع فى آفاقه من فنون جديدة ، أو أساليب ممتعة ، أو أفكار خصبة وغير ذلك .

٢- ومن جهة أخرى فإن النقد الأدبى هو الوسيلة الوحيدة والمتملى لوضع حد للنوضى فى الإنشاء^(١) ، فكثير من كتبنا التراثية الرفيعة كانت بمثابة رد فعل للثورات النقدية .

٣- يعد النقد الأدبى تلخيصا مفيدا للقراء ، فهو يوفر لهم كثيرا من الوقت والجهد ذلك أنه يعرض عليهم خلاصات تتصل اتصالا قويا بدراساتهم ، ويبين لهم نواحي الكمال إن كان فيها

(١) يمكن القول بأن التيارات النقدية التى ظهرت فى القرن الأول كانت سببا فى تأليف الكتب والفصل فى الخصومات ، وهذا بدوره يضع حدا للنوضى فى التأليف .

كمال ، أو نواحي الضعف إن كان فيها نقص ، وفضلا عن ذلك كله فإنه لما كان قراء الأدب طبقات مختلفة الكفايات كان النقد الأدبي هو الطريقة المثلى التى تمثل الوسيط الجيد الذى يصل بين النفوس بقصد تقريب الآثار الأدبية إليهم .

٤- والحق أن النقد الأدبي ظاهرة اجتماعية لا غنى عنها مطلقا ، ما دام للفن الأدبي حياة ، وما دامت له تلك المنزلة الرفيعة بين الفنون الإنسانية ، وما دام له ذلك التأثير فى حياة الأمم والشعوب .

وفى نهاية هذا الحديث ينبغى أن نقول إنه ليس لتحليل النصوص الأدبية منهج بعينه يلتزم به النقاد ، ويرون اللجوء إليه عند تحليل النص وشرحه وتفسيره ، والحكم عليه فى النهاية ، فالمنطق يحتم علينا أن نقول إن المناهج متعددة ، ووجهات النظر مختلفة ، وعلى هذا فنحن نحاول أن نحدد المناهج المشهورة ، وهى (١) :

- ١- المنهج الفنى .
- ٢- المنهج التاريخى .
- ٣- المنهج النفسى .
- ٤- المنهج المتكامل .

(١) انظر النصوص الأدبية تحليلها ونقدها ، د/ على عبد الحليم محمود ص ٢٠ وما بعدها ، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

(١) المنهج الفني

وهو منهج يقوم على القواعد والأصول الفنية ، بمعنى أنه يجعل من القواعد والأصول الفنية أساسا يعتمد عليه فى الحكم على النصوص الأدبية .

وهذا المنهج ذاتى وموضوعى فى آن واحد ، ولعل ذلك راجع إلى اعتماده على محورين أساسيين :

(١) المحور الأول هو التأثير الذاتى من محلل النص (أى الناقد) .

(٢) المحور الثانى هو ما توفر فى النص من عناصر موضوعية ، وأصول فنية .

وهذا المنهج يعد أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب ، وإلى طبيعة الفن ، ولعل هذا هو السبب الذى يجعله أحرى المناهج بالقبول لدى دارسى الأدب وناقديه ، لأنه يواجه النص الأدبى بالقواعد والأصول الفنية المقررة فى علوم اللغة ، وعلوم البلاغة، وما يتعارف عليه أهل كل علم وفن من خصائص ومميزات .

ومن أهم أهداف هذا المنهج ما يلي^(١) :

- ١- تمييز الجنس الأدبي عن غيره من الأجناس ، كالقصيدة أو القصة ، أو الرواية ، أو المسرحية ، أو المقالة ، أو الرسالة ، أو البحث ، أو ترجمة الحياة ، بحيث يوضح لنا خصائص هذا الجنس ، ومدى ما توفر له من هذه الخصائص .
- ٢- توضيح القيم الشعورية والقيم التعبيرية في النص ، وبيان مدى انطباقها على الأصول الفنية لهذا النص .
- ٣- تلخيص خصائص الأديب نفسه من الناحية الفنية ، أى التعبيرية والشعورية من خلال دراسة هذا النص وتحليله ومواجهته بهذه القواعد والأصول الفنية .

(٢) المنهج التاريخي

والمنهج التاريخي يعتمد على تعرف النص الأدبي ، ومدى تأثيره بالبيئة أو تأثيره فيها ، وما له بهذه البيئة من أطوار مر بها .
وهذا المنهج لا يمكن له بأى حال من الأحوال أن يغفل المنهج الفنى ، ذلك لأن تذوق النصوص الأدبية يقوم أساسا على دعائم المنهج الفنى ، وهذا ما جعل المنهج الفنى أهم من سواه فى مجال النقد الأدبى .

(١) انظر المصدر السابق ص ٢١ .

ويتطلب هذا المنهج التعرف على ما يلي :

١. الأديب وظروف حياته .
٢. النص الأدبي وما فيه من قيم .
٣. الآراء التي تناولت الأديب في النص .
٤. الأطوار التاريخية التي مرت بها الفنون الأدبية .

(٣) المنهج النفسي

وهو منهج يهتم بتحليل النص الأدبي عن طريق تسليط الضوء على نفسية الأديب المبدع ، بمعنى أنه يهتم بإبراز العناصر النفسية التي أسهمت في العمل الأدبي .

ويستهدف هذا المنهج توضيح دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه ، كما يستهدف توضيح أثر هذا العمل الأدبي في نفوس الآخرين عند قراءته والإطلاع عليه.

(٤) المنهج المتكامل^(١)

وهو منهج يعتد بكل المناهج التي سبقت ، ويتخذ أصولها وقواعدها أساسا في الحكم على العمل الأدبي ، وبمعنى آخر إن هذا المنهج يجمع إيجابيات المناهج الأخرى ، ويتجنب سلبيات هذه المناهج .

(١) انظر النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، سيد قطب .

وعن خصائص هذا المنهج يقول الدكتور على عبد الحليم محمود^(١) :

أولاً : المنهج المتكامل لا ينظر إلى الإنتاج الأدبي على أنه إفراز للبيئة العامة بالدرجة الأولى ، ولكنه إفراز للأديب ، والأديب متأثر فى الغالب الأعم ببيئته ...

ثانياً : المنهج المتكامل لا يتجاهل القيم الشعورية ولا القيم التعبيرية فى الأثر الأدبي ، وإنما يأخذها فى اعتباره ، ويقيس جودة الأثر الأدبي أو رداً بمقاييسها ، وهى مقاييس فنية جيدة .

ثالثاً : المنهج المتكامل لا ينظر إلى الإنتاج الأدبي على أنه إفراز لعوامل نفسية محددة البواعث ، معروفة العلل ، وإنما ينظر إليه على أنه نتاج النفس البشرية بكل ما أودعها الله من قدرات ، وما هياها لها من استعدادات النفس البشرية التى تعد من أكبر العوامل التى خلقها الله ومن أعضائها .

رابعاً : المنهج المتكامل وإن كان تعامله الأساسى مع العمل الأدبي فى ذاته إلا أنه لا يغفل الجوانب الأخرى التى تسهم فى العمل الأدبي وتؤثر فيه دون شك ، مثل علاقة العمل الأدبي بنفسية صاحبه ، وأثر البيئة فى صاحب العمل الأدبي ، فهو منهج يجمع فى خطواته معظم إيجابيات المناهج التى تحدثنا عنها ، ويتجنب فى خطواته أكثر سلبيات تلك المناهج ، ومن ثم كانت تسميته "المنهج المتكامل" تسمية مناسبة حقاً .

(١) النصوص الأدبية تحليلها ونقدنا ص ٦٠، ٦١ .

رابعاً : الخطوات المتبعة فى دراسة النص الأدبى

لقد أفاض النقاد فى الحديث عن تحليل النصوص الأدبية ، وأكثروا القول حول الخطوات التى ينبغى اتباعها عند تحليل نص من النصوص الأدبية ، وغايتهم من ذلك أن يكون المتناول للنص سريع الاستجابة للتأثيرات التى تثيرها فى نفسه قراءة النص الأدبى.

ومع ضرورة توفر الذوق الأدبى لمن يريد أن يقدم على تحليل نص من النصوص ، مع ضرورة ذلك فإنه لا بد لصاحب هذا العمل أن يكون ذا نزعة إنسانية فى نقده تدعوه دائماً إلى الالتقاء مع أصحاب النصوص التى ينقدها.

ولقد برع الدكتور محمد كامل الفقى فى حصر وتتبع الخطوات التى ينبغى الأخذ بها فى دراسة نص من النصوص الأدبية ، ونحن نورد هنا بنصها كما ذكرها وهى تتمثل فى^(١):

أولاً : أن تصن أرقاماً للنص الشعرى لتكون شبه ضوابط للأفكار المتعددة فى النص ، فتسهل تحديد هذه الأفكار بتلك الأرقام ، وتجد معانيها اللغوية فى هامش الصفحات بمراعاة هنا الترقيم.

(١) من عيون الأدب، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، ص ٦ وما بعدها.

ثانياً : أن تسوق ترجمة قصيرة لصاحب النص تركز فيها على ما له صلة وثيقة بهذا النص ، فإذا كان النص منسوباً مثلاً للصنوبري شاعر الطبيعة العباسي نوهت بإحسانه وصف الطبيعة ، وفتونه بها ، ذلك الذي يتمثل في بستانه الذي أنشأه وتعهده بالسقي والنماء مما هو أثر من إلفه للرياض وامتزاج نفسه بها.

وإذا كان النص لأبي تمام أو المتنبى أشرت إلى غوصهما في الفلسفة مما أضحى على أسلوبهما العمق والغرابة.

وإذا كان منسوباً للبارودي وجاء نصه في الفخر والحماسة نوهت بنشأته الحربية ومناصبه العسكرية والميادين التي خاض معاركها .. وهكذا. وأقرب توضيح لهذه الترجمة أن تكون "بطاقة" لصاحبها.

ثالثاً : أن تتحدث عن المناسبة التي قيل فيها النص ، والمناسبة فيما أرى لوانان :

أ- مناسبة مباشرة كالتهنئة بفتح أو إدراك أمل ، أو قدوم عيد ، أو عودة من سفر أو شبه ذلك.

ب- ومناسبة غير مباشرة ، بمعنى أنها ليست واقعة فعلاً ، وإنما هي مجرد خواطر شعرية ، وسرحة من خيال الشاعر والأديب ، ولا يعز عليك إذا أن تعبر عن هذه المناسبة بأنها تصور من الشاعر أو الأديب ، وانفعال بخياله الذي ناب مناب الحقيقة. والمباشرة غيوض من فيض بالنسبة للتأني ، ومن الواضح أن المناسبة بقسميها محتملة الوجود في الشعر والرسالة والقصة والمقال ، والخطبة المميزة أما المرتجلة فالمناسبة فيها الانفعال الملهم.

رابعاً : تقسيم النص :

جرى كثير من شراح النصوص على أن يقسموا النص المدروس من قصيدة أو رسالة تشتمل على عدة أغراض ، وجملة مقاصد ، فيقولوا إن النص يشتمل على غزل ، ومدح ، وفخر ، ووصف أو غير ذلك محددين بداية هذه الأغراض ونهايتها.

وقد يكون النص قائماً على غرض واحد ، كالغزل وحده أو الوصف داخل هذا الغرض الواحد ، وفائدة هذا التقسيم الاستعانة به لزيادة الوضوح وتجسيم ما في النص من أفكار حتى لا يضل الدارس ولا ينسى جانباً منها.

والذى أميل إليه ، أن يفوض للدارس اللجوء إلى هذا التقسيم أو العدول عنه في القصائد القصار ، أو القصيدة التى لم تتعدد أغراضها ، وهو كذا في أن يفعل مثل ذلك أو لا يفعله فى الرسالة التى يدرسها إن كانت كذلك.

لكن الأجدى أن يترك النص القصير أو ذا الغرض الواحد دون تقسيم لأن التقسيم قد يؤدي إلى تتبع هذه الجزئيات فيقال أنها فى البيت الأول والثالث والشرط الأخير من الخامس ، وفى الجمل الثلاث الأولى من الرسالة وفى الجملة السابعة ، والجملة العاشرة فى بعضها ما هو من هذه الفكرة ، وهذا تمزيق للنص لا طائل تحته.

خامسا : أن تضبط ألفاظ النص التي يوقع إغفال ضبطها في اضطراب قد يكون من آثاره الفهم الخاطئ ، أو المعنى المختل ، وكم في اللغة من ألفاظ يتغير معناها باختلاف حركات حروفها .

وقد ألف ابن مالك النحوى الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٢هـ كتاب الألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها .

سادسا : أن تفسر الكلمات اللغوية لأن هذه الكلمات أوعية لمعانيها وقد يكون للكلمة الواحدة عدة معان وعلى الدارس إذا أن يوازن بين ما يصلح التفسير به وما لا يصلح ، بل عليه ، أن يختار من هذه المعانى الصالحة المتقاربة ما هو كالمتعين في تفسير النص .

سابعا : أن تتولى شرح الأفكار التي يشتمل عليها النص ، وهذا العنصر من البحث ذو أهمية خاصة ، فهو مظهر جلى للقدرة على الفهم ، والغوص وراء المقصود من النص ، وهو كذلك مجال لتفاوت الكفايات في التعبير الأدبى الدقيق ، وكلما استحضر الدارس في ذهنه ما يتصدى له من مهمة وهى معالجة نص أدبى له إشراق وإحسان ، اجتهد فى أن يكون الأسلوب الذى يشرح به النص دقيقا موزونا بما يوزن به النفائس ، فليس شرح النص الأدبى مجرد محاولة تقريبية ، إنما هو فى الأصح مرآة مجلوة تعكس جوانب النص كلها فيستوى لدى القارئ أن يجد هذه التحفة الأدبية فى النص الذى جاءت فيه أو الشرح الذى شرحت به ، ولا يغيب عن الأذهان أن تولى الأساليب الراقية فى معالجة النصوص أمر لا غنى عنه ، وهذه الأساليب بمثابة الثوب الجميل للجسد الجميل .

ومن الخطأ الفني في شرح هذه الأفكار أن تعرض في ترتيب لا يوافق ما جاءت عليه في النص ، فلا بد من عرض هذه الأفكار حسب تسلسلها في القصيدة أو الرسالة أو الخطبة أو المقالة أو القصة ، ومقياس هذه المحاكاة أن تكون الحالة المنسوجة من الشرح كالملائمة تماما للحالة المنسوجة من النص لا زيادة ينتهي إليها ، ولا نقص ينحدر إليه .

ومن براعة الشرح مع ملاحظة هذا كله أن يجمع من الأفكار ما يكون حلقة متصلة تناثرت في خلال النص مقوماتها .

فلو كان النص مشتملا على غزل ووصف وشاعرت جزئيات الغزل بين أول النص وآخره وفي ثناياه ، لزم أن يضم شتاتته ويؤلف بين ما تباعد منه ، وترجمة ذلك أن يجتذب الدارس ما تناثر من جزئيات الغرض ويؤلف بينها ، ويبرزها في نسق متكامل .

ومن تمام التآلف بين الشرح والنص أن تقع - فيما أرى - كلمات قصيرة من النص في أسلوب الشرح وأن يكون بينها وبين الشرح تمام المؤاخاة حتى ذئها جزء من النص ، وذلك لا يتيسر طبعاً إلا إذا نقيت أساليب الدارس وارتقت عباراته ، وتم أعظم التجارب بينه وبين الأديب ونصه ، حينئذ تكاد النغمة أن تتحد ، والرونق أن يتمثل .

ثامناً : أن تناقش أفكار النص ، وهذا العمل أهم ما يناف بالدارس ، لأن هذه المناقشة حكم على النص ، أو لعلها عدة أحكام ، ومن ثم فهي مظهر للقدرة والدقة ، وأثر من آثار العقل ، وصورة للموازين الصحيحة التي لا يهتدى إليها إلا من اكتملت له مواهب عقلية وعلمية وأدبية ، ومن كان له مع ذلك ذوق بصير يمكنه من أن يحتكم إليه مع هذه المزاي .

وإنما كان حق المناقشة قاصرا على من توفرت له هذه الخصائص ، لنضمن سلامة الكم ، ودقة المقاييس .

فالمقومات زمام يمسك به الدارس فلا يضل ، والتمكن من علوم العربية والوقوف على معايير النقد ، ضمان من فساد الحكم والزلل .

وينبغي ملاحظة أن الذوق موهبة فطرية ، وإدراك طبيعي ، يختلف باختلاف الأشخاص والبيئات ، ويتفاوت بتفاوت الظروف ، والتربية والجنس ، وكلما صحت مقومات الذوق صحت أحكامه (...).

وفي رأينا ورأى كثير من النقاد أن الأدب يتكون من عناصر أربعة هي : (العاطفة ، والمعنى ، والخيال ، والأسلوب)^(١) ومعنى هذا أن أي لون من الألوان الأدبية لا بد وأن يشتمل على هذه العناصر الأربعة ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يخلو من عنصر منها .

فالعاطفة تكشف عن ألم الشاعر أو الكاتب ، كما تكشف عن شقائه ، وتعبر عنه أصدق تعبير وأقواه ، ومن هنا ندرك أن إثارة العواطف هي العنصر الظاهر في الأدب .

وفي رأينا كذلك أن الأديب لا يعبر عن الحقيقة من حيث هي حقيقة ، بل من خلال إدراكه الوجداني لها ، وإحساسه العاطفي بها ، فأى قوة تلك التي تمنح الشاعر القدرة على نقل الحقائق من واقع حسي إلى واقع جديد؟^(٢)

(١) انظر النقد الأدبي ، أحمد أمين : ٢٢/١ مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م . ، وانظر كذلك أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ص ١٨٠ والمذاهب النقدية ، د/ ماهر حسن فهيم ص ٩ .

(٢) انظر أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ، ص ٢١٠ وما بعدها .

فالتخيال إذا هو الرابطة بين عالم الشعور وعالم الإدراك والفهم ، وهو يستمد قوته في كل الأحوال من العاطفة والوجدان ، وكلما كان رصيد الأديب من العاطفة كبيراً استهوى النفوس بروعة خياله وجدته ، وما نقوله عن العاطفة والتخيال نقوله عن المعاني واللغة ، وغيرها من مقاييس النقد الأدبي .

ومهما يكن من أمر فهناك حقيقة ينبغي أن نشير إليها ، وهي أنه قد ظهرت في العصر الحديث عدة مقاييس^(١) ، كما ظهرت علوم أسهمت إلى حد كبير في توجيه الدراسات النقدية ، وكلها تسهم في عملية الإبداع ، كما تسهم في التعرف على شخصية الأديب ، وتحديد إطارها على ضوء دراسة المواقف النفسية^(٢) وهذا ما فطن إليه الدكتور محمد كامل الفقى حين تناول في دراسته للخطوات التي تتبع في دراسة النص دراسة الحالة النفسية ، والحكم على التجربة الشعرية ، والعاطفة ، والاحتكام إلى الذوق الخاص ، يقول^(٣) :

" دراسة الحال النفسية :

ومع الاعتراف بضيق الوقت للطالب ، وما يتقل كاهله من مواد دراسية نجد من الضروري في دراسة النصوص الأدبية ، أن نتلمس الحالة النفسية للأديب ، وأن نستشف ما عليه الأديب - من خلال نصه - من رضا أو غضب ، ومن حب أو بغض ومن اطمئنان أو قلق

(١) راجع النقد الأدبي د/ سهير القلماوى ص ٧٢ وما بعدها ، طبعة معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٥م ، ومقالات في النقد الأدبي ، د/ رشاد رشدى ص ٧ طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٢م ، والمذاهب النقدية د/ ماهر حسن فهمى ص ٢١ .

(٢) انظر التفسير النفسى الأديبى د/ عز الدين اسماعيل ، والنقد الأديبى ومدارسه الحديثة ، تأليف ستانلى هايمن ، ترجمة د/ احسان عباس ومحمد يوسف نجم ج ١ ص ١٠ وما بعدها ، دار الثقافة بيروت ١٩٥٨م .

(٣) من عيون الأديب ، ص ١٦ - ٢٣ .

ومن إيمان أو اصطناع إيمان ، فإن الأديب يرتبط بالنص أوثق ارتباط ، لأنه مهما خدع أسلوبه ، لا تخفى حاله النفسية ، وما بين الأدب والنفس أغنى من أن يحتاج إلى بيان ، وقد يقول بعض الناس : إن الأدب يصنع النفس ، وقد يقول بعضهم : إن النفس تصنع الأدب ، ومهما يكن من شيء فبينهما علاقة أوثق علاقة ، والمنهج العلمى إنما يقوم على دراسة العلاقة بين الأديب ونفسه ، وبعض الباحثين المحدثين عنى بدراسة العلاقة بين البلاغة وعلم النفس ، وبعضهم كتب فى الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ...

والحق أن السلوك فى دراسة النص الأديبى من الأهمية بمكان ، وإن كان محتاجا إلى جهد وبصر وروية^(١).

الحكم على التجربة الشعرية :

ولا بد فى الحكم على النص الشعرى من التسأمل فى التجربة الشعرية ،ومن التعرف على ما وصل إليه الشاعر من إحسان أو تخلف ، والتجربة الشعرية هى الحالة التى تلبس الشاعر ، وتهدى وجدانه إلى موضوع من الموضوعات ، من حادث أو مشهد فيعبر عما شهده أو تأمله تعبيرا يرسم مدى القيمة الفنية للشاعر ، ويلائم بين التجربة والصياغة ، والقيمة الفنية إنما تنحصر فى درجة التواءم بين التجربة والصياغة ، أو بمعنى آخر فى اتساق الثوب الشعرى مع التجربة ، وتفصيله على قدها ، فلا يكون طويلا فضاضا ، ولا قصيرا معريا .

(١) راجع كتاب التفسير النفسى للأدب للدكتور عز الدين إسماعيل .

ومن الشعراء من يعمد إلى الإطالة والاستطراد حتى تتضارب
الخواطر ، ويشيع في النص التناقض .

وقد كان الشعر القديم يتسم كثير منه بهذا الاستطراد ، بحيث لو
حذفت بعض أبياته ما لمست نقصا ، لكن الشعراء المجددين ، وجدوا
أنفسهم أمام مقاييس جديدة ، وصار الحكم على فنهم يعتمد على أسس
منها هذه التجربة التي تميز بين شاعر وشاعر .

فالتجربة الشعرية الخليفة بالبقاء هي التي تتناول موضوعا
عاما ، أو موضوعا إنسانيا مع جمال الأداء وجودة الصياغة .

وبمعنى آخر ، إن الشاعر العظيم الباقي هو الذي يتناول حقيقة
من حقائق النفس الدائمة ، أو حقيقة من حقائق الوجود الخالدة في تأدية
بارعة محكمة^(١).

العاطفة :

ومن مهمة الدارس أيضا أن يعرض لما في النص من هذه القوة
التي ينقلها وهي العاطفة ، والعاطفة أو الانفعال يراد بها نزوع الشاعر
أو الأديب إلى موضوع أو فكرة أو مشاهدة تؤثر فيه تأثيرا قويا يدفعه
إلى التعبير عن مشاعره والإنصاح عما يجرى بخواطره ، فالعاطفة
الأدبية هي القوة التي يثيرها الأديب في نفوس القراء .

والعاطفة متفاوتة في النصوص ، متفاوتة في نفوس أصحابها .

(١) راجع كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث لمصطفى عبد اللطيف السحرتي .

وواجب الدارس أن يحكم عليها في النص من حيث منبعها الذى تدفقت منه ، ومن حيث الباعث عليها ومن حيث نوعها ومظهرها ...
وفى الحق أن صدق العاطفة وكذبها من الدقة واللفظ
بمكان ، فكم من نصوص تخدع عباراتها ، ويفتن أسلوبها ، ويعيبها
الباحث عن طريق الحق الذى ينفذ منه إلى الحكم الصادق ، وإن وجدته
فبعد لأى وصبر شديد .

الموسيقى :

وأخر ما يناط بدارس النص الأدبى أن يسمع إلى ما فيه من جمال الموسيقى وتناسق النغم ، وليس الشعراء بمثابة واحدة فى أنفاسهم الشعرية ، فمنهم من ينضح شدة بالحلاوة الموسيقية ، ومنهم من تتميز أنغامه بالإثارة والانفعال ، ومنهم من تتسم موسيقاه بالقعقة والرنين ، وفيهم من لا تشعر بأية هزة حين تسمع شعره ، والشعر الذى يفقد موسيقاه يفقد أهم مقوماته ، وربما عد نظما لا شعرا ، والشاعر المبدع هو الذى يوجد التنسيق الموسيقى بين فقرات القصيدة جميعها ، ومن الجدير بالذكر التنبيه إلى أن اتباع الوحدة الموسيقية الكلية ، إنما يقصر على القصائد الغنائية أو الوجدانية وعلى القصائد القصار ، أما القصائد المطولة فقد حلوا التنوع الموسيقى فيها لأن من شأن ذلك أن يبعدها عن السامة والملل^(١).

(١) الشعر المعاصر .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التى تتفق وحالة الشاعر النفسية ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة فى البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة من لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة طويلة من الدراسات التجريبية فى موضوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ، ولكنه فى توزيع غير مطرد من النبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

ولكل قصيدة نغمتها الخاصة التى تتفق وحالة الشاعر النفسية ، ولكن لما كانت طبيعة بنية القصيدة من الناحية العروضية تقوم على تكرار الوحدة الوزنية المتمثلة فى البيت ، فقد صارت القصيدة كلها نغمة من لون واحد ، وصار من الصعب تنويع النغمة داخلها لارتباط الشاعر بالبنية العروضية لها .

وقد أجريت سلسلة من الدراسات التجريبية فى موضوع الأسلوب الشعرى بوساطة تسجيل الصوت تبين فيها أن الشكل الحقيقى لبيت الشعر ليس البحر المعروف ، ولكنه فى توزيع غير مطرد من النبرات العادية القوية والضعيفة ، مع وقفات أطول وأقصر ، مع صعود وهبوط فى الشدة الصوتية .

وليس هنالك بحر مخصوص يتحتم على الشاعر أن ينظم فيه
ليعبر عن انفعال خاص ، وتتبع جملة من القصائد يدل على أن الشعراء
عبروا في الوزن الواحد عن حالات انفعال مختلفة ، بل لقد عبروا عن
حالات الحزن والبهجة في الوزن نفسه.

وبعض الكاتبين يقسم الموسيقى الشعرية إلى قسمين : موسيقى
خارجية ويحكمها العروض ، وموسيقى داخلية ويحكمها قيس صوتية
باطنية ، وهي أرحب من الوزن والنظم المجردين .

وموضوعات الشعر تختلف فيها الموسيقى اختلافاً بينا ، فالغزل
يتطلب موسيقى تختلف عن موسيقى الوطنية وموسيقى الجهاد
مثلاً ، والأصوات تتفاوت في قوتها ونغمتها وصفاتها وألوانها
وانخفاضها وارتفاعها وكميتها ، فمن الموسيقى ما يمتاز بقوته وجمال
تقطيعاته الصوتية ومنها ما يمتاز بالسرعة والسلاسة دون الحلاوة
الإيقاعية وأفضل موسيقى الشعر ما ساير موضوع القصيد ، وخيرها ما
تمشى مع الأفكار وتساوق مع المعاني . وتجاوبت ألوان نغماته ونبراته
مع حالات النفس .

فالشاعر في حال احتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقي
عالي النغمة ، وفي حزنه يكون منخفض النغمة ، وفي تعجبه وفرحه
وهدوئه واطمئنانه تكون المسافات الصوتية قصيرة ، أما في بثه وألمه
فتكون مسافات الصوت طويلة ، وهكذا تساير النغمات حالات
النفس ، كما تساير موضوع القصيد وفكرته^(١).

(١) الشعر المعاصر .

والذوق يختلف باختلاف أصحابه ولكن الذوق وحده ليس كافيا في التمييز بين هذه الألوان ، ويجب أن يضاف إليه كل ما يقرره النقاد مبن مقاييس .

هذا وقد أدرك الشعراء المعاصرون أهمية التشكيل الموسيقي للقصيدة من حيث أثرة القوى في تقديم صورة صادقة ، ومؤثرة ، لوجداناتهم المختلفة ، فحاولوا أن يخرجوا من إطار الشكل القديم للقصيدة إلى شكل جديد تكون الموسيقية للقصيدة خاضعة خضوعا مباشرا للحالة النفسية أو الشعورية التي يصدر عنها الشاعر ، وبهذا تصبح القصيدة صورة موسيقية كاملة تتلاقى فيها الأنغام وتفترق محدثة نوعا من الإيقاع الكلى الذى يترك فى نفس المتلقى أثره .

وملاحظة النغمة العامة للأسلوب ، والتيار الصوتى الذى يجب أن يطرد فى غير قسوة ولا ملل ، غاية لا بد أن يتوخاها الأديب .

والأدب بأنواعه قائم على هذا النغم الذى يحقق الجمال والأخذ ، غير أنه فى الشعر أقوى وأوضح منه فى النثر ، وهو فى الشعر الوجدانى أكثر نزوما وأشد ارتباطا .

قد يقول : إن الوزن والقافية صاحبا الأثر فى موسيقى الشعر ، فما الذى جلب الموسيقى للنثر ؟

قلنا إن الموسيقى فى النثر من خلوه من الكلمات المتنافرة الحروف .

ونقائه من العبارات والكلمات والجمل التى تودى إلى تنافر ما .

والتنوع فى النغم يزيده قبولا .

وقصر الفقر والمزاوجة كذلك من الأسباب التي تزيد في موسيقى النثر .

والتكرار قد يساعد على إضفاء الموسيقى في النثر .

ويلاحظ أن الموسيقى متفاوتة بتفاوت الغرض الأدبي ، فهي صاحبة في الفخر والحماسة هادئة رقيقة في الغزل ، حزينة في الرثاء والشكوى . ولا نظن أن اختيار بحر من بحور الشعر ، في غرض من الأغراض يحدث من الموسيقى ما يمنع من استعماله في غرض آخر . فالطويل مثلا ، استعمل في النسيب ، والفخر ، والسهجاء ، والرثاء ، وغيرها .

وآخر ما أتبه إليه من مقاييس الموسيقى غير منضبطة ، لأنها تعتمد على الذوق ، والذوق مختلف ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ..."

نماذج من الشعر فى العصر الأموى أولاً : قصيدة فى الغزل للشاعر

عمر بن أبى ربيعة

- ١- أمن آل نعم أنت غاد فمبكر * غداة غد أم راتح فمهجر؟^(١)
- ٢- بحاجة نفس لم تقل فى جوابها * فتبلغ عذرا والمقالة تعذر^(٢)
- ٣- تهيم إلى نعم فلا الشمل جامع * ولا الحبل موصول و لا القلب مقصور
- ٤- ولا قرب نعم إن دنت لك نافع * ولا نأيتها يسلى ولا أنت تصبر
- ٥- وأخرى أنت من دون نعم ومثلها * نهى ذا النهى لو ترعى أو تفكر
- ٦- إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة * لها كلما لاقيتها يتنمر
- ٧- عزيز عليه أن ألم بيبتها * يسر لى الشحاء و البغض مظهر
- ٨- أكنى إليها بالسلام فإنه * يشهر إمامى بها و ينكر^(٣)
- ٩- بآية ما قالت غداة لقيتها * بمدفع أكنان أهذا المشهر؟
- ١٠- قفى فانتظري أسماء هل تعرفينه؟ * أهذا المغيرى الذى كان ينكر؟^(٤)
- ١١- أهذا الذى أطريت نعتاً فلم أكن * وعيشك أنسأه إلى يوم أقبر^(٥)
- ١٢- فقالت نعم لا شك غير لونه * سرى الليل يحيى نصح و التهجّر^(٦)
- ١٣- لئن كان إياه لقد حال بعدنا * عن العهد والإسنان قد يتغير^(٧)

- (١) نعم : إحدى محبوبات عمر ، ويجوز أن يكون هذا الاسم غير حقيقى وإما تكنى به عن بعض من تغزل فيهن حتى لا يفتضح أمرهن معه . الراتح : السائر فى الرواح وهو وقت المشى أو من الزوال إلى الليل . المهجر : السائر فى وقت الهجرة .
- (٢) بحاجة نفس وروى (لحاجة نفس) والمقصود : رغبة فى نفسك . ولم تقل فى جوابها : أى لم تقل شيئاً فى إجابة السؤال عنها أى أنه كتبها عن كل من يسأل عنها
- (٣) أكنى : كن رسولى واحمل رسالتى.
- (٤) المغيرى : أى عمر نسبة إلى المغيرة جد أبيه .
- (٥) أطريت مدحاً : أحسنت وصفاً - وعيشك : قسم بحياتها ، أقبر : أنفن فى القبر (أموت)
- (٦) سرى الليل : السير فيه ، يحيى نصح : يحيى إسراره فى السير ليلاً.
- (٧) حال بعدنا : تغير بعد رؤيتنا إياه .

- ١٤- رأيت رجلا إذا الشمس * عرضت فيضحي وأما بلعشى فيخصر^(١)
١٥- أخصا سفر جوارب أرض تقانفت * به فلوات فهو أشعث أغبر^(٢)
١٦- قلييل على ظهر المطية ظله * سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
١٧- وأعجبها من عيشها ظل غرفة * وريان ملتف الحدائق أخضر
١٨- ووال كفاها كل شئ يههما * فليست لشيء آخر الليل تسهر
١٩- وليلة ذى نوران جشمتهى السرى * وقد يجشم الهول المحب المغرر^(٣)
٢٠- فببت رقيباً للرفاق على شفا * أحاذر منهم من يطوف وانظر^(٤)
٢١- إليهم متى يستمكن النوم منهم * ولى مجلس لولا اللبانة أوعر^(٥)
٢٢- وباتت قلوبى بالعراء ورحلها * لطارق ليل أو لمن جاء معور^(٦)
٢٣- وبت أتاجى النفس أين خباؤها * وكيف لم أتى من الأمر مصدر^(٧)
٢٤- فدل عليها القلب ريسا عرفتها * لها وهوى النفس الذى كاد يظهر^(٨)
٢٥- فلما فقت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح شبت بالعشاء وأنور^(٩)
٢٦- وغاب قمر كنت أهوى غيوبه * وروح رعيان ونوم سمر^(١٠)

(١) عارضت : قابلت وواجهت - بضحى : يتعرض للشمس ، بخصر : يشتد به البرد .
(٢) جوارب : صيغة مبالغة من جاب بمعنى قطع .
(٣) ذى دوران : اسم موضع ، جشمتهى السرى : حملتهى مشقة السير لئلا ، وجشم يجشم وتجشمه : تكلف الأمر على مشقة . الهول : المخوف ، المغرر : المخدوع الذى يعرض نفسه للهلاك .
(٤) شفا : حافة وحرف ، ومعنى على شفا : أى على حذر وتريص .
(٥) لولا اللبانة : لولا الحاجة ، أوعر : شاق وصعب .
(٦) قلوبى : ناقتى ، الرجل : مركب اللبنة كالسرج للفارس ، طارق الليل : أت فى الليل ، معور : ظاهر واضح من أمور بمعنى ظهر .
(٧) أتاجى النفس : أحنثها سرا .
(٨) الربا : الراتحة الذكية ، هوى النفس : حب النفس .
(٩) فقت الصوت : فقطع وصوله إلى ، شبت : أوقدت ، العشاء : بعد المغرب . الأنور : النيران ومفردها نار وأصل الجمع أنور وهمزت الواو فصارت الكلمة على ما هي عليه .
(١٠) قمر : قمر صغير ، روح رعيان : عادوا إلى بيوتهم .

- ٢٧- وخفض عنى الصوت أقبلت مشية الحباب * وشخصى خشية القوم أزور^(١)
- ٢٨- فحييت إذ فاجأتها فتولعت * وكادت بمخصوص التحية تجهر^(٢)
- ٢٩- وقالت وعضت بالبنان فضحتنى * وأنت امرؤ ميسور أمرك أسر
- ٣٠- أريتك إذ هنا عليك ألم تخف؟ * وقيت وحولى من عدوك حضر^(٣)
- ٣١- فوالله ما أدرى أتعجيل حاجة * سرت بك أم قد نام من كنت تحذر
- ٣٢- فقلت لها بل قاننى الشوق والهوى * إليك و ما نفس من الناس تشعر
- ٣٣- فقالت وقد لانت و أفرخ روعها * كلاك بحفظ ربك المتكبر^(٤)
- ٣٤- فأنت أبا الخطاب غير مدافع * على أمير ما مكثت مؤمر^(٥)
- ٣٥- فيالك من ليل تقاصر طوله * و ما كان ليلى قبل ذلك يقصر
- ٣٦- و يالك من ملهى هناك ومجلس * لنا لم يكدره علينا مكر
- ٣٧- يمى ذكى المسك منها مقبل * نقى الثنايا ذو غروب مؤشر^(٦)
- ٣٨- تراه إذا ما افتتر عنه كأنه * حصى برد أو أقحوان منور^(٧)

(١) مشية الحباب أى كما تمشى الحية ، وشخصى أزور أى وجسى مائل خشية أن يرى أجد .

(٢) تولعت : أظهرت الوله ، ومدت خبيرة والحرز من شدة الوجد ، محفوض للتحية : الذى يسر منها ولا يعلن

(٣) أريتك : قل لى وأخبرنى ، وأصلها : أريتك . هنا عليك : سهلنا عليك ، وقيت : دعاء له بالرفابة من الأذى ، العدو : يقال للواحد وللجمع .

(٤) لانت : استجابت له . أفرخ روعها : ذهب خوفها وهذأت نفسها . كلاك : حفظك وحرسك وأصلها كلاك فقلبت الهزرة ألفا لانفتاح ما قبلها وذلك للتخفيف .

(٥) أبو الخطاب : كنية صر ، وهو منادى محذوف الأداة ، غير مدافع : غير منازع ، مكثت : أقمت مؤمر : أى لك الأمر والسيادة على .

(٦) يمى ذكى المسك : يقذف بالرائحة الطيبة ، المقبل : القدم وهو موضع التقبل ، الثنايا : الأسنان الأربعة التى فى مقدم القدم ثنتان من أعلى وثنتان من أسفل ، ذو غروب : ممثلئ بالرحيق والرضاب ومؤشر : أى أسنانه محززة ومحرقة خلفه أو صنعة للتجميل .

(٧) إذا ما افتتر عنه : أى إذا ما كشفت عنه بالابتسام ، حصى برد : حبات المطر التى تنزل نقيصة بيضاء ، أقحوان منور : نبت طيب الرائحة به أزهار .

- ٣٩- وترنو بعينيهما إلى كما رنا ❁ إلى ظبية وسط الخميلة جؤذر^(١)
- ٤٠- فلما تقضى الليل إلا أقله ❁ وكادت توالى نجمه تنغور^(٢)
- ٤١- أشارت بأن الحى قد حان منهم ❁ هبوب ولكن موعد منك عزور^(٣)
- ٤٢- فما راعنى إلا مناد ترحلوا ❁ وقد لاح معروف من الصبح أشقر
- ٤٣- فلما رأت من قد تنبه منهم ❁ وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر؟
- ٤٤- فقلت أباديهم فيما أفوتهم ❁ وإما ينال السيف ثارا فيثأر^(٤)
- ٤٥- فقالت أتحيقا لما قال كاشح ❁ علينا وتصديقا لما كان يؤثر^(٥)
- ٤٦- فإن كان ما لا بد منه فغيره ❁ من الأمر أدنى للخفاء و أستر
- ٤٧- أقص على أختى بدء حديثنا ❁ ومالى من أن تعلمتا متأخر
- ٤٨- لعلهما أن تطلبا لك مخرجا ❁ وأن ترحبا سرى بما كنت أحصر^(٦)
- ٤٩- فقامت كنيبا ليس فى وجهها دم ❁ من الحزن تذى عبرة تتحدر^(٧)
- ٥٠- فقامت إليها حرتان عليهما ❁ كساءان من خز دمقس وأخضر

(١) ترنو : تنظر ، الخميلة : الشجر الكثيف الملتف ، الجؤذر : ولد الطيبة أو البقرة الوحشية .
(٢) توالى نجمه : نجومه المتبقية من إضافة الصفة إلى الموصوف ، تنغور : تتحدر وتغيب .
(٣) الحى : البطن من بطون القوم . حان : قرب . هبوب : تيقظ من النوم . عزور : اسم موضع بين مكة والمدينة .
(٤) أباديهم : أبدو وأظهر وأنصدى لهم بالمبارزة . أفوتهم : أسبقهم وأنجو منهم . الثأر : الدم والطلب به . فيثأر : فيدرك طلبه بالدم .
(٥) الكاشح : العدو الذى يبطن العداوة . يؤثر : يروى ويعرف ويقال .
(٦) ترحبا : تتسما ، سرى : نفسا وصنرا ، أحصر : أضيق به .
(٧) كنيبا : منكسرة من الغم . تذى عبرة : تنزف دمة . تتحدر : تسيل على الوجه .

****تعريف موجز بالشاعر:**

ولد عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة عام ٢٣ للهجرة ، وكانت ولادته في بيت قرشي واسع الثراء ، هو بيت بنى مخزوم^(١).

وأسرة عمر ذات ثراء وجاه ، فأبوه في الذروة من قومه ثراء ، وجده الذي ينسب إليه وهو أبو ربيعة كان رجلاً شجاعاً ، وكان له أخوان معروفان في تاريخ قريش هما هشام بن المغيرة والوليد بن المغيرة .

وعمر شاعر مكى ، فيها ولد ، وبها نشأ ، ومع ما يقال ويذكر حوله من روايات ومغامرات فقد كان مسلماً متأثراً بالإسلام ، وقد توفي سنة ثلاث وتسعين من الهجرة بعد سبعين عاماً قضاها في الغزل الصريح ، أعانه على ذلك تراؤه ، وأن الدنيا مشرقة باسمه دانما من حوله ، والمغنون والمغنيات من أهل مكة يعيشون في ظلاله ، ويتغنون بشعره ، وكان أهل مكة يلتفون حولهم ليستمعوا إلى شعر ابن أبي ربيعة في البيوت تارة ، وفي الضواحي تارة أخرى.

وابن أبي ربيعة في غزله يخضع ملكاته لفن الغناء ، وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف^(٢) :

"وهو في غزله يخضع ملكاته لفن الغناء الذي عاصره ، إذ يستخدم الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، حتى يحملها المغنون والمغنيات ما يريدون من ألحان وإيقاعات ، كما يستخدم لغة سهلة ، فيها عذوبة

(١) تاريخ الأدب العربي (المصر الإسلامي) د/ شوقي ضيف ص ٢٤٩ دار المعارف ط ٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٥٠ .

وحلاوة ، حتى تفسح لهم في روعة النغم ، ونراه لا يصطنع أى ثوب من ثياب التكلف ، بل يظهرنا على حقيقته في غزله ، وأنه لا يزال يتخذ الشباك لكل امرأة جميلة في مكة ، وتحول إلى مواسم الحج يعلن حبه إعلاناً لكل امرأة ذات حسن يلقاها"

ولقد قصر عمر شعره على وصف النساء ، ويندر أن ينطلق بفنه الشعرى بعيداً عن الغزل ؛ ولذلك أكثر المؤلفون الحديث حول إسرافه ولهوه ومجونه ، وألفت في ذلك روايات عديدة ، لكن الدكتور طه حسين ينتصف له ، ويعدّه في منزلة وسطى بين شعراء المجون والشعراء المعتدلين^(١) ، وهذا هو الرأى الذى نميل إليه ، ونراه أجدر بالقبول والاستحسان.

****الدراسة الفنية :**

هذه قصيدة غزل لشاعر يلهج بصبايته وحبّه ، وما يذوق من وجد وألم ، إنه شاعر يصف حالته بأفكار منتظمة ، مترابطة ، متتابعة ، ويتلطف مع صاحبتّه ، مستعطفاً ، متضرعاً ، ملحاً على أن تواصله بودها ، يساعده فى ذلك سهولة الألفاظ ، وانسيابها ، وسلامة التركيب ، وبعد الشاعر عن التعقيد .

والأبيات من (١-٩) استهلال وتقديم ، يبدأ الشاعر بمخاطبة نفسه على عادة الشعراء ، ويذكر أنه لم يحدث أحداً بما فى نفسه من صباية وحب وألم ، وحيرة وشقاء ، حتى إذا ما عجز يلجأ إلى رسوله ، فيطلب منه أن يحمل رسائله .

(١) انظر حنيث الأربعاء : ٣٠٨/١ ط دار المعارف .

والأبيات من (١٠-١٨) تتحدث عن صفاته التي جعلته معشوقاً لا عاشقاً ، يوقد قلوب الفتيات حبا ، حتى إنهن ليتمنين عطفه وحنانه ، كل ذلك في حوار قصصى ، وفي موازنة بين حاله وحال محبوبته ، وذلك هو أهم ما يطبع غزل الشاعر .

والأبيات من (١٩-٣٩) تصور الصعوبات التي تحملها الشاعر في الوصول إلى محبوبته ، ثم تصور مغامرته الليلية ، وكأنه في ذلك يحاكي شاعر الجاهلية امرأ القيس مع الفارق ، والشاعر في كل هذه المغامرة يطلب ويأمل ، ويعلن العشق والهيام ، ويصور أيضا ما يوقد به قلوب النساء من العشق والصبابة .

وهو في أثناء ذلك يناجي ليله ، ويصور محبوبته تصويراً تقليدياً يكشف عن عواطفه تجاهها ، وما يتعمقه من رقائق الحب ، وما يثير في قلبه من المشاعر الرقيقة .

وفي بقية الأبيات يواصل الشاعر قصته الغزلية ، ويعلن تألمه من الوشاة والهجر ، ثم يختم الأبيات بوصف الناقة ، وما تحملته من مشقات السفر ، حتى خف لحمها ، وذهب شحمها ، وتلك عادة لا يختلف فيها الغزل الجديد في عصر بني أمية عن الغزل الجاهلي القديم .

ومهما قيل عن هذه القصيدة من أن الشاعر قد تغير فيها وتطور فنحن لا ننكر أن نفسه فيها قد طال على غير عادته ، وعذره في ذلك أن القصيدة عبارة عن قصة غزلية يحكى فيها الشاعر تجربة من تجاربه في الحب في بيئة تغيرت كثيراً عما كان في حياة العرب قبل ، فلقد تحضر أهل العصر ، وجد على حياتهم ما جد عليها من ألوان النعمة والترف .

والشاعر يخضع فى غزله لفن الغناء الذى عاصره ، فينوع فى أساليبه بين الإنشاء والخبر ، ويستخدم الألفاظ الموحية المعبرة التى لا تتحدر إلى جفاوة البادية وغلظة الأعراب ، ويأتى بالتجريد الذى يلائم أسلوب الحوار الذى بنيت عليه القصيدة .

وعلى هذا النحو نراه يطوع بحره الشعرى ليوكب جوه النفسى من جهة ، والألفاظ والتراكيب من جهة أخرى ، ونراه يأتى فى بعض الأبيات بحسن التقسيم ليعبر عما يجيش به فؤاده ، وما يتحرك داخل وجدانه .

ولو ذهبنا نلتمس الظواهر الفنية من خلال ما جاء به الشاعر فى قصيدته لوجدنا كثيراً منها ، فهو يكثر من استخدام الأساليب الخبرية لأغراض مختلفة ، ويأتى بالأساليب الإنشائية التى تتلاءم مع الحوار ، ويستعين بالألفاظ والجمل الموحية ، ويأتى بالأغراض البلاغية حسبما يقتضى الحال ، فى أسلوب قصصى تكتمل فيه كل المقومات الفنية ، ويتلاءم مع الجور الشعورى والحالة النفسية ، هذا فضلاً عن استقصاء الصور ، والإمام بالتفاصيل والجزئيات ، والتعبير عن العصر والبيئة، والنفاذ إلى خوالج النفس ، لدرجة جعلت هذه القصيدة تحظى باهتمام الدارسين من متذوقى الأدب ودارسيه .

نانيا الأخطل فى المديح والحرب والغروسية

لقد اتسع شعر المديح والهجاء بحيث استحوذ على أكثر من نصف الشعر المعروف فى عصر بنى أمية ، وذلك لأن السياسة - كما سبق أن قلنا - كانت هى المحور الذى تدور حوله الحياة فى ذلك الزمن ، وكانت شغل الخلفاء الشاغل ، وعمل رجال دولتهم وأعوانهم ومن يتعصبون لهم ، ومن يناوئونهم ولا يرون رأيهم ، أو لا يرتضون حكمهم ، وكان الشعر يدور محوره حول التتويه بفضل الحزب الذى يدافع عنه الشاعر ويمجده .. ذلك هو شعر المدح ، وكان يغلب على أصحاب هذا اللون من الشعر أنهم لا يكتفون بمدح الطرف الذى ينحازون إليه ، ويقفون بجانبه ، ويدافعون عنه ، وإنما يتجاوزون ذلك إلى ذم الخصوم ، أو النيل منهم والزراية بهم .

ولا نستطيع القول فى هذا المجال أن هؤلاء الشعراء قدموا فنا خاصا بالحرب والغروسية ؛ إذ لم يكن من خطتهم أن يفعلوا ذلك وإنما جاء هذا وذلك ضمن مديحهم وهجائهم ، وكان المديح والهجاء عندهم وفقا لعقيديتهم الدينية التى يعملون من أجلها ، وفى إطار الأهداف السياسية التى يسعون لتحقيقها .

وهذا اللون يتضح عند (الأخطل والفرزدق وجريز) ، أشعر أهل العصر الأموى ، وخير من يمثل العصر ، ثم إن شعرهم قد ذهب - أو كاد - فى تدبيح قصيدتى المديح والهجاء^(١) ، وكانوا يمدحون أو يهجون بما يتفق وطبيعة الخلفاء ورجال الدولة . وكان رجال الدولة الأموية من قوم لهم أرومة فى الشجاعة ومهارة فى الحرب وبراعة فى الكر والفر ، بل إنهم عشقوا الحرب هاموا بها ، وعاش بعضهم ممتطيا صهوة جواده ، ممتشقا حسامه ، يقود الجيوش ويخوض المعامع .

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د. شوقي ضيف : ١٣١ . دار المعارف ط ٦ .

فإذا كانت هذه طبيعتهم من حب للحرب وعشق للشجاعة وابتهاج بالمدح وهيام بدم خصومهم ، أدركنا أنه من الطبيعي أن يتضمن الشعر المتصل بهم لونا جديدا يتلاءم مع رغباتهم ويتمشى وهذه الحياة السياسية المصبوغة بصبغة حربية ، من معارك فيها نصر أحيانا وهزيمة أحيانا أخرى . فإذا كان نصر وصف الشعراء المواقع والتحام الجيوش واقتحام الصفوف . وإذا ما كانت هزيمة حاول الشعراء أن يخفوا من وطأتها ، وأن يلتمسوا العذر ويهونوا من شأنها .

وقد اقتصر شعر الأخطل في مستهل عهده به على الهجاء وظل على هذا فترة حتى أسعفته الحياة الحزبية العنيفة ، فأوحت إليه شعرا جديدا أخذ يمجّد فيه البطولة ويباركها ، ويصف الوقائع ودقائقها ، ولعله أكثر من صاحبيه (الفرزدق وجريز) وصفا للحرب وذكرها للقتال .

وقصائده في عبد الملك بن مروان تفيض بأوصاف الحرب والفروسية ، ففيها يهجو الخصوم ، ويعرض بهم في التقهقر والهرب ويفخر بالعمو عنهم ، كما أنها سجل لتمجيد قومه والإشادة بمآثرهم وهذا شيء طبيعي ، فالأخطل كان لا يزال مأخوذاً بهموم قبيلته وقد ابتلاه دهره بالغزوة ، فتوسط الحرب بين قومه بنى تغلب وقبائل القيسية .

وقصيدته التي عنوانها "خف القطين" والتي مدح فيها عبد الملك ابن مروان فيها تجاوز للمدح إلى الفخر والهجاء ، وإن شئت فقل إنها تعد مثالا لشعر الحرب والفروسية الذي سكبها الشاعر على الأمويين بصفة عامة ، وعلى عبد الملك بن مروان بصفة خاصة .

ومنها يقول :

- ١- خف القطين فرلحوا منك لو بكروا ❁ وأزعجتهم نوى في صرفها غير^(١)
- ٢- كئنى شارب يوم استبد بهم ❁ من قرف ضمنتها حمص أو جدر^(٢)
- ٣- لذأصليت حمياها مقلته ❁ فلم تكذ تجلى عن قلبه الخمر^(٣)
- ٤- كئنى ذلك ذو لوعة خيلت ❁ أوصله أو أصابت قلبه النشر^(٤)
- ٥- حثوا المظى فولتسا منلكها ❁ وفي الخدور إذا باغمتها للصور^(٥)
- ٦- ما يرعون إلى داع لحاجته ❁ ولا لهن إلى ذى شية وطر^(٦)
- ٧- إلى مرئ لا تعدينا نواقله ❁ أنظفره الله فليهنأله لظفر^(٧)
- ٨- الخنص الغمر للميمون طائرته ❁ خليفة الله يستسقى به للمطر^(٨)

(١) خف : ارتحل وأسرع ، القطين : أهل الدار المقيمون ، راحوا : ذهبوا في وقت الرواح وهو العشاء أو من الزوال إلى الليل ، النوى : الذية ، وتأتى بمعنى البعد ، غير الدهر : أحداثه ومصائبه .
(٢) استبد بهم : غلبوا على أمرهم ، قرفت : خمر ، حمص وجدر : بلدان بالشام (سوريا الآن) وقيل الثانية بالأردن وهما معروفتان بإجادة صناعة الخمر .
(٣) اللذ : الرجل الحلو الحديث ، حمياها : حدثها ، المقاتل : المواضع التي إذا أصيب الإنسان فيها قتل ، الخمر : جمع خمرة والمقصود آثارها من الأكم والأذى .
(٤) اللوعة : الحزن ، خيلت : أسدت ، النشر : جمع نشرة وهي الرقية ، والمقصود بالنشر : الأمراض التي تتداوى بها .
(٥) حثوا : حضوا ، المظى : روى المطايا بدلا منها ، الخدور : الهودج ، باغمتها : كلمتها ، الصور : الجوارى المصورة في أحسن صورة .
(٦) يرعون : يرجعون .
(٧) لا تعدينا : لا تتقطع عنا ، النواقل : المطايا .
(٨) الغمر : الماء الكثير ، والمقصود هنا المعارك ، الميمون طائرته : المبارك الموفق ، يستسقى به المطر : يذكر اسمه عند طلب المطر فيجيب الله الدعاء إكراما له .

- ٩- والمستمر به أمر الجميع فما ❁ يغتره بعد توكيده غرر^(١)
- ١٠- وما لفرقت إذا جشئت حواليه ❁ فى حافتيه ، وفى أوساطها لعشر^(٢)
- ١١- وذعذعته رياح لصيف وضطربت ❁ فوق الجأجى من آذيه غدر^(٣)
- ١٢- مسحفر من جبل الروم يستره ❁ منها أكافيف فيها دونه زور^(٤)
- ١٣- يوما بأجود منه حين تسأله ❁ ولا بأجهر منه حين يجتهر^(٥)
- ١٤- مقدم مأتى ألف لمنزله ❁ ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر
- ١٥- يغشى القاطر ، يبنها ويهدمها ❁ مسوم فوقه الرايات والقتر^(٦)
- ١٦- حتى يكون له بالطف ملحمة ❁ وبالثوية لم ينبض بها وتر^(٧)
- ١٧- وتستبين لأقلام ضلالتهم ❁ ويستقيم الذى فى خده صعر^(٨)
- ١٨- ثم استقل بأتقال العراق وقد ❁ كادت له نعمة فيهم ومدخر^(١)

(١) المستمر به أمر الجميع : الذى تقوى به وحدتهم ، يغتره : يخدعه ، غرر : خادع .

(٢) جاشت : أضربت ، الحوالب : الأمواج ، المشر : شجر .

(٣) ذعذعته : حركت مياهه تحريكا شديدا ، الجأجى : جمع جؤجؤ وهو صدر السفينة أو الطائر .

الآدى : موجه المرتفع ، الغدر : جمع غدبر وهو مجرى الماء الصغير .

(٤) المسحفر : السريع الجرى ، الأكافيف : الجوانب المرتفعة فى أعراض الجبل ، الزور : الميل والإعوجاج .

(٥) بأجهر منه : بأروع منه حسنا ، يجتهر : يستعظم .

(٦) مسوم : الذى فيه علامة تميزه ، القتر : الغبار .

(٧) الطف والثوى : موضعان بالقرب من الكوفة ، لم ينبض بها وتر : لم يرم بها نبل ، فى حرب صعبة لم تبدأ بالسهام وإنما فيها التحام بالسيوف والرمح .

(٨) الصعر : ميل الخد عن النظر إلى الناس ، تهاونا وتكبرا .

- ١٩- فى نبعه من قريش يعصبون بها ❁ ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر^(١)
٢٠- تغلو الهضاب وحلوا فى رومتها ❁ أهل الرباء وأهل القفر إن فخرُوا^(٢)
٢١- حشد على الحق عيافو الخنا أنف ❁ إذا أمت بهم مكروهة صبرُوا^(٣)
٢٢- فإن تدجت على الآفاق مظلمة ❁ كان لهم مخرج منها ومعصر^(٤)
٢٣- أعطاهم الله جدا ينصرون به ❁ لا جد إلا صغير بعد محقر^(٥)
٢٤- لم يأشروا فيه إذا كانوا مواليه ❁ ولا يكون لقوم غيرهم شُروا^(٦)
٢٥- شمس العداوة حتى يستفاد لهم ❁ وأعظم الناس لُحلاما إذا قدرُوا^(٧)
٢٦- لا يستقل ذو الأضغان حربهم ❁ ولا يبين فى عيدانهم خور^(٨)
٢٧- هم الذين يبارون الرياح إذا ❁ قل الطعام على العافين أو قترُوا^(٩)

(١) النبعة : شجرة صلبة ، والمقصود : الأصل ، يعصبون بها : يحيطون بها ويمتزون بصبيتها ، يوازى : يحازى .
(٢) الهضاب : الجبال العالية . والمقصود أن هذه النبعة بنيت فوق الجبال فلا يوازىها فى علوها شئ . أهل الرباء : أهل الفضل والمنه .
(٣) حشد : مجتمعون متأهبون . عيافو الخنا : كارهو الفحش كراهة شديدة ، أنف : جمع أنوف وهو الأذى الذى يرفضه الذل .
(٤) تدجت : أظلمت والدياجى : الظلمات ، مظلمة : شدة ، معصر : منفذ وملجأ .
(٥) الجد : الخط .
(٦) لم يأشروا : لم يبطروا . مواليه : أصحابه .
(٧) شمس : جمع شمس وهو الفرس الصعب القيادة ، يستفاد لهم : يؤخذ حقهم ممن إعتدى عليهم .
(٨) يستقل الشئ : يعبه قليلا ويستهبين به ومعنى لا يستقل : لا يحتمل ، فى عيدانهم خور : فى أجسامهم ضعف .
(٩) يبارون : يسابقون ، العافون : الذين يطلبون القوت ومفرده العافى ، قترُوا : انتقروا وضيعوا على أنفسهم .

- ٢٨- بنى أمية نعمالكم مجاللة ❁ تمت فلامنة فيها ولا كسر^(١)
- ٢٩- بنى أمية قد ناضلت دونكم ❁ أبناء قوم ، هم أوواوهم نصرورا^(٢)
- ٣٠- أفحمت عنكم بنى لتجار قد علمت ❁ عليا معد وكانوا طالما هدرورا^(٣)
- ٣١- حتى استكانوا وهم منى على مضض ❁ والقول ينفذ ما لا تنفذ الأبر^(٤)
- ٣٢- بنى أمية إنى ناصح لكم ❁ فلا يبيتن ، فيكم أمانا زفر^(٥)
- ٣٣- واتخذوه عدوا إن شاهده ❁ وما تغيب من أخلاقه دعر^(٦)
- ٣٤- وقد نصرت أمير المؤمنين بنا ❁ لما ألك بطن الغوطة الخبر^(٧)
- ٣٥- يعرفونك رأس ابن الحباب وقد ❁ أضحى ، ولل سيف فى خيشومه نر^(٨)
- ٣٦- لا يسمع للصوت مستكا مسامعه ❁ وليس ينطق حتى ينطق الحجر^(٩)

(١) النعمى : العطايا ، مجللة : سابعة تعم الجميع ، المنة : من الامتنان وهو تعداد المعروف ، الكدر : الأذى بتعداد النعم .

(٢) ناضلت دونكم : دافعت عنكم ، أبناء قوم : يريد الأنصار الذين هجأهم لما دعاه يزيد الى ذلك .

(٣) أفحمت : أسكت وأخرست بالحجة - بنو النجار : يريد الأنصار من بنى النجار ، عليا معد قريش ومعد جد مضر ومن مضر قريش وبنو أمية ، الهدير : الصوت القوى كهدير السيل أو الإبل ومعنى هدرورا رددوا الكلام كثيرا .

(٤) استكانوا : خضعوا ، المضض : ألم المصيبة .

(٥) زفر : زفر بن الحارس الكلابى زعيم قبيلة قيس المعادية لتغلب .

(٦) شاهده : ظاهره ، الدعر : الفساد .

(٧) بطن الغوطة : دمشق .

(٨) ابن الحباب : عمير بن الحباب السلمى من زعماء قيس وكان قد قتلته التغلبيون فى موقعة بين قيس وتغلب نصره للأمويين ، الخيشوم : أقصى الأنف .

(٩) مستكا مسامعه : أصم .

وفى بالنتية التي مطلعها^(١) :

لعمري لقد أسريت لاليل عاجز ❁ بساهمة الخدين طارية القرب
نراه يستهلها بهجاء القيسيين ، ثم يمتدح بنى أمية ، فهم هامة
قريش ، عريقون فى الملك ، حلماء ، فتاكون بأعدائهم :

إيك ، أمير المؤمنين ، رحلتها ❁ على الطائر الميمون والمنزل للرحب
إلى مؤمن تجلو صفيحة وجهه ❁ بلايل تنشى من هموم ومن كرب
مناخ نوى الحاجات ، يستمطرونه ❁ عطاء كريم من أسارى ومن نهب
ترى الحلق المأذى تجرى فضوله ❁ على مستخف بالنوائب والحرب
لخوها إذا شالت عضوضا سمالها ❁ على كل حل من ذلول ومن صعب
ويصف مضى الخليفة بالخيل إلى الحرب ، ويعظم ممدوحه من
خلال تعظيمه لأصالة خيله ، ويذكر ما قام به من غزو للروم والفرس
وما كان من أثر لهذه الغزوات . يقول :

إمام سما بالخيل حتى ثققلت ❁ قلائد فى أعناق معلمة ، حذب
شولخص بالأبصار ، من كل مقرب ❁ أعد لهيجا ، أو موافقة الركب
سواهم ، قد عاودن كل عظيمة ❁ مجللة الأشطان ، طيبة الكسب
يعاندون عن صلب الطريق من الوجا ❁ وهن ، على العلات ، يردبن كالنكب
إذا كلفوهن للتلى ، لم يزل ❁ غراب على عوجاء منهن أو سقنب
وفى كل عام ، منذك للروم غزوة ❁ بعيدة آثار السناكب و السرب

(١) شرح ديوان الأخطل ١٨١ .

يطرحن بالصغر السخال ، كأنما ❁ يشققن بالأسلاء أردية العصب
بنات غراب ، لم تكمل شهورها ❁ تفلقلن من طول المغاوز والجذب
وإن لها يومين ، يوم إقامة ❁ ويوما تشكى للفض من حذر للضرب
غموس الدجى تتشق من متضرم ❁ طلبوب الأعادى ، لاسؤوم ولاوجب

ثم يعرج ثانية على الأمويين ويشيد بعراقتهم فى الملك فيقول :

قروم أبى العاصى ، غداة تخطمت ❁ دمشق بأشباه المعنأة الجرب
يقودون موجا من أمية ، لم يرث ❁ ديار سليم بالحجاز ولا الهضب
ملوك وأحكام وأصحاب نجدة ❁ إذا شوغوا ، كانوا عليها إلى شغب
أهلوا من الشهر الحرام فأصبحوا ❁ موالى ملك ، لا طريف ولا غضب
تذود القنا والخيلى تنسى عليهم ❁ وهن بأيدى المستميتين كالشهب
ولم ترعيني مثل ملك رأيتنه ❁ أتاك بلاطعن الرماح ، ولا للضرب
ولكن رآك الله موضع حقه ❁ على رغم أعداء وصدادة كذب
والشاعر يبلغ فى الأبيات ذروة العظمة ، وهى تدخل فى صميم
الشعر الحربى ، إذ ابتدأها بوصف الخليفة بأنه يفزع خصومه ويقهرهم
ويفتك بهم ، ولا يفوته أن يصف الخيل لأنها العامل الأول فى القتال
، فيصف سراها وما أصابها من هزال ، ثم يعرج إلى حروبه مع
الروم والفرس وما أصابهم من دعر وفزع ، ويعود إلى المديح مرة ثانية
فيصف الأمويين بالعراقة فى الملك والنجدة وأنهم أحق بالخلافة من الذين
ينازعونهم لما نالوه من فضل .

ولعل ما عند الأخطل من روح القبالية هو الذى جعله يجيد شعر الحروب ويبرز فيه ، وكثيرا ما كان يهجو جريرا وقومه ، ويقرن ذلك دائما بمدح تغلب ويشيد بهرهم إلى القتال ونصرتهم لبني قومهم . وكان يتصالف على جرير ويعيره بأنه يربوعى ، لأنهم كانوا أحلاقا للقيسية التى كثيرا ما حاربت قوم الأخطل .

وقد خرج الهزيل بن هبيرة التغلبى مرة فى غزوة على بنى رياح بن يربوع فانتهاز الأخطل هذه الغزوة ، وأخذ يكيل التهم لجرير ، ووصف جيش الهزيل وأحلافه وفرسانهم وخيولهم ، يقول^(١) :

ولقد سما لكم الهزيل فالكم ❁ باراب حيث يقسم الأنفالا
فى فيلق يدعو الأراقم لم تكن ❁ فرسانه عزلا ولا أكفالا
بالخيل ساهمة الوجوه كئما ❁ خالطن من عمل الوجيف سلالا
ولقد عطفن على قدارة عطفة ❁ كر المنيح وجلن ثم مجالا
فسقين من عادين كئامة ❁ وأزلن حدبني الحباب فزالا
يغشين جيفة كاهل عرينها ❁ وابن المهزم قد تركن مزالا
فقتلن من حمل الله إلاح وغيرهم ❁ وتركن فلهم عليك عبالا
ولقد بكى الجحاف مما أوقعت ❁ بالشرعية ، إذ رأى الأطفالا
فانعق بضأنك يا جرير فإئما ❁ منتك نفسك فى الخلاء ضلالا

تلك هى جولات الأخطل فى شعر الحرب ، وهى ترينا كيف كان قادرا على وصف المعارك وتصوير الحرب فى شعر المديح والسهجاء فكان قديرا حين مزج بين هذين الفنين وبين شعر الحرب ، ولو حدث

(١) شرح الديوان : ٣٩١ ، ٣٩٢ .

وتفرغ الأخطل لشعر الحرب وقال فيه قصائد خالصة كما قال في المدح والهجاء وغيره لكان قد فاق طبقته .. إلا أنه قد شغل بهجائه مع جرير، وضيع هو وصاحبه وقتا كبيرا من حياتهما ففى هذا الهجاء ، المر الذى حال بين الأخطل وبين شعر الحرب والفروسية المطول ، الذى يؤرخ للمعارك ونتائجها ، ويصورها تصويرا صادقا .

وعلى هذه الشاكلة كان جرير فى مديحه وهجائه ، فهو يشيد بالأمويين وسياستهم وكل ما يصدر عنهم ، فهم قوم فضلهم الله على الناس إذ اختارهم للخلافة ، ويكرر وصفهم بالعدل ورد المظالم لا يمل تكرار هذه النغمة فى مدائحه .

ومن حين لحين يعرض لخصومهم فيصفهم بأنهم ضلوا السبيل ويعددهم خارجين عن الدين ، ويظل يشيد بما يصدر من الأمويين تجاه هؤلاء من سفك الدماء . وقد وضعته الحوادث موضع النقيض من الأخطل ، لأن قيسا قبيلة جرير وتغلب قبيلة الأخطل كانتا على طرفى النقيض فى السياسة ، وكثيرا ما استل رجال القبيلتين السيوف فى معارك حربية ضارية .

وجرير أبرع فى شعر الحرب من الأخطل ، فهو قوى النفس شجاع الهمة ، وله أبيات شعرية كثيرة فى الحماسة ، ولا غرو فنفسه كانت تعلوا به إلى مشارف الفرسان والأبطال ، فهو يفخر بسيفه فيقول^(١):

جرى الجنان لا أهال من الردى ❦ إذا ما جعلت لسيف من عن شماليا

وقد ظهر فيه هذا الشعور حين قال الحجاج له وللفرزدق وهو فى قصره بجزيرة البصرة : انتيانى فى لباس أبائكما فى الجاهلية فلبس

(١) شرح الديوان : ٧١٠ .

الفرزدق الديباج والخز وقعد في قبة . وشاور جرير دهاء بنى يربوع فقالوا له : ما لباس أبائنا إلا الحديد ، فليس جرير درعا وتقلد سيفا وأخذ رمحا وركب فرسا لعباد بن الحصين وأقبل في أربعين فارسا من بنى يربوع ، وجاء الفرزدق في هيئته فقال جرير في هذا^(١) :

لبست سلاحى والفرزدق لعبة ❁ عليه وشاح كرج وجلجله
أعدوا مع الحلى الملاب فإنما ❁ جرير لكم بعل وأنتم حلائله
وكثيرا ما كان يذكر أمجاد قومه ، وكأنه يريد أن يشحذ بطولته
التي يحسها في نفسه . يقول^(٢) :

ويوم بنى ربعة قد لحقنا ❁ وذننا يوم ذى نجب كلابيا
ويوم الحوفزان ، فأين تيم ❁ فتدعى يوم ذلك أو تجابيا
وكان شعره في المدح ممزوجا بوصف الحرب وذكر السلاح
والأيام وقد فاض هذا الشعر فروسية فى وصف الخيل وهجماتها
واعتصام الفرسان بغاراتها ، ويظل جرير مولعا بتصوير الفروسية وما
تثيره حروب قومه مع التغلبيين .

وقد نظم قصيدته هجاء الأخطل ، أخذ يفاخر فيها بقومه
فقال^(٣) :

ونعرف حق لنزلين ولم تنزل ❁ فوارسنا يحمون قاصية السرب
على مقربك هن معقل من جنى ❁ وسم لعدى والمنجيات من الكرب
ألا رب جبار وطنن جبينه ❁ صريعا ونهب قد حوين إلى نهب

(١) الأغاني : ٢٨٢٢/٨ . دار الشعب ط٢ .

(٢) شرح اليونان : ٤٣ .

(٣) شرح الديوان : ٨٢ .

ثم يهجو الأخطل ويعيره بانتصار القيسيين على قومه فيقول^(١) :

وقد أوردت قيس عليك وخننف ❁ فوراس همن الحياض لتي تجبي

ستعلم ما يعنى للصليب إنا غنت ❁ كتأذب قيس كالمناة الجرب

وكثيرا ما يعير الأخطل وقومه بما يصيبهم من خذلان في الحروب
كأكبر سبة يمكن أن يلصقها به وقومه ، ولم يكن ليترك معركة (يوم
البشر) التي دارت على الأخطل وقومه ، فكان النصر لجريير ، وكانت
الهزيمة للأخطل وقومه ، يقول واصفا تلك الموقعة^(٢) :

بكي دويل ، لا يرقأ الله دمعته ❁ ألا إنما يبكي من الذل دويل

جزعت لين ذلت الفلس لما تداركت ❁ من الحرب أنياب عليك وكلكل

فإنك والجحاف يوم تحضة ❁ أردت بذاك المكث والورد أعجل

سرى نحوكم ليل كأن نجومه ❁ قناديل فيهن الذبال المفتل

فما لثشق ضوء الصبح حتى تعرفوا ❁ كراديس يهديهن ورد محجل

وقد قتل أولاد نسوة ❁ يسوق ابن خلاس بهن وعزهل

عقاب المنايا تستدير عليهم ❁ وشعث النواصي لجمهن تصلصل

بدجلة إن كروا فقيس وراعهم ❁ صفوفا ، وإن رلما المخاضة لوطوا

وما زالت القتلى تمور دماؤها ❁ بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

نلا لفضل في الدنيا وأنفك راغم ❁ ونحن لكم يوم القيامة أفضل

(١) شرح الديوان : ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) شرح الديوان : ٥٤٨ ، ٥٤٩ .

أما الفرزدق فمع تعصبه الشديد لآل البيت وتشيعه لهم^(١) إلا أنه كان كثير المدح للأمويين ، واعترف في مدحه لهم بحقهم في الخلافة ، ولعل حبه للتكسب وخوفه من بطشهم حملاه على أن يظهر في مدحه لهم خلاف ما يبطن .

ومع أنه لم يحارب ولم يخض أحداث الحرب ، وكان يخشى الحجاج ويحاذر من جبروته في قوله :^(٢)

أخاف من الحجاج سورة مخدر ❁ ضوارب بالأعناق منه خوادره

إلا أنه لم يقصر في شعره عن وصف بطولة آبائه وأجداده وكان قائدا في هجائه وهو يدافع عن قبيلته . وفي قصيدة له في الهجاء نراه يتطرق إلى وصف المعارك التي دارت بين الحجاج وبين جنود عبد الرحمن بن الأشعث^(٣) ، والتي كانت الهزيمة في مبدئها للحجاج حتى تغير الحال في آخر المعركة . يقول :^(٤) واصفا المعركة ومشيدا بفروسية الحجاج وتأيبده من السماء شأنه شأن أهل بدر :

دعوا ودعا للحجاج والخيل بينها ❁ مدى النيل في سلمي العجاجة أكررا
إلى باعث الموت لينزل نصره ❁ فأنزل للحجاج نصرا مؤزرا
ملائكة، من يجعل الله نصرهم ❁ له يك أعلى في القتال وأصبرا
فلما رأى أهل النفاق سلاحهم ❁ وسيماهم كانوا نعاما منفرا
كأن صفح الهند فوق رؤوسهم ❁ مصابيح ليل لا يبالين مغفرا
بأيدى رجال يمنع الله دينهم ❁ بأصدق من أهل العراق وأصبرا

(١) انظر مقامة الديوان : ٦٠٥ . دار بيروت .

(٢) الديوان ٢٥١/١ .

(٣) انظر الكامل لابن الأثير : ٤٦٧/٤ . بيروت .

(٤) الديوان : ٢٤٢ ، ٢٤١/١ .

كأن على دير الجماجم منهم ❁ حصائد أو أعجاز نخل تقعرا
لقيتم مع الحجاج قوما أعزة ❁ غلاظا على من كلن في الدين لجورا
بهم يوم بدر أيد الله نصره ❁ وسوى من القتلى لركى المعورا
جنودا دعا الحجاج حين أعانه ❁ بهم ، إذا دعارب العباد لينصرا
وهكذا رأينا كيف كان شعر الحرب والفروسية عند هؤلاء الأقطاب
الثلاثة وسيلة لا غاية ، ومع أن العصر امتلأ بالحروب والفتن إلا أنهم
اكتفوا بأبيات يصفون فيها هذه الحرب وتلك الفتن ، ولم يأت عندهم شعر
حربى . فى مطولات أو ملاحم ، ولعل قلة حملهم للسلح وقلة اشتهارهم
بشعر الحرب والفروسية كشأن الشعراء الفرسان ، ثم التهاجى الذى حدث
بينهم والذى شغلهم وقتا طويلا .. لعل هذا كله كان سبب تقصيرهم فى
شعر الحرب والفروسية ، ولو أن هؤلاء قد بذلوا من أنفسهم ، ووفروا
من وقتهم قدرا كافيا لشعر الحرب لأعطونا - لما لديهم من نزعة قبيلية
ودعوى عصبية - ملاحم أو شبه ملاحم ، ولما اكتفوا بتلك الأبيات التى
يصفون فيها لمحات من الحرب وأحداثها .

وعلى هذا فنحن نلاحظ أن من خصائص شعر الحرب
والفروسية عند كل من شعراء المديح والهجاء ما يلى :

١) يلاحظ على شعر الحرب والفروسية عند هؤلاء الشعراء أنهم
اتخذوه وسيلة لا غاية ، فالشعر عندهم وسيلة للتكسب والاحتراف
ووسيلة لدم المعارضين المناوئين ، وقد أدى ذلك إلى انصرافهم
عن المهمة الأساسية لهذا الشعر ، وأدى من ناحية أخرى إلى
تشابه شخصياتهم الشعرية .

- (٢) لعل عدم اشتهار هؤلاء الشعراء بالشجاعة والبطولة والفروسية كشأن الشعراء الفرسان .. لعل هذا هو الذى جعل شعرهم يخرج فى هذا الفن دون شعر الخوارج ، ومن النادر أن نجد فى شعرهم تجربة حية للحرب تخلو من التكلف والرياء .
- (٣) والقصيدة التى يصفون فيها الحرب أو الفروسية لا تكاد تخالف القصيدة الجاهلية لا فى الاستهلال^(١) ولا فى تعدد الفنون والأغراض ، فالشاعر منهم يبدأ قصيدته بالغزل ، ويأتى فيها بأكثر من غرض شعري ، ويدور حول أكثر من معنى .
- (٤) ولما كان هؤلاء الشعراء قد عاشوا فى زمن سادت فيه النزعة القبلية والدعوى العصبية ، وقد قام شعرهم فى المدح والهجاء بإثارة هذه النزعة .. لما كان ذلك رأينا شعرهم فى الحرب والفروسية يصبغ بتلك الصبغة .
- (٥) ولا بد أن نذكر أن شعر الحرب عند هؤلاء كان يتسم بقوة الجرس وصلابة العبارة ، وبالقوافى الرائعة الطنانة التى تتناسب والحرب . وبشيوخ الأوصاف الحربية مثل وصف الجيوش بالجرأة والإقدام والبأس ، وحب القتال .. ووصف القائد والأمير بأنه ناصر الدين وحامى الإسلام ومؤيد بالنصر من عند الله ، وبالعفو عند المقدرة ووصف صورة العدو بالجبن والخور والخزى والسهوان والاستسلام وغير ذلك من الأوصاف المستفيضة الذكر فى أبياتهم فى الحرب .

(١) انظر مقدمة القصيدة العربية فى العصر الأموى . حسين عطوان : دار المعارف ١٩٧٤ .

ثالثا : الفرزدق يفخر ويهجو

- ١- إن الذى سمك السماء بنى لنا ❁ بيتا دعائمه أعز وأطول^(١)
- ٢- بيتا بناه لنا المليك و ما بنى ❁ حكم السماء ، فإنه لا ينقل^(٢)
- ٣- بيتا زرارة محتب بفنائنه ❁ ومجاشع وأبو الفوارس نهشل^(٣)
- ٤- يلجون بيت مجاشع ، وإذا احتبوا ❁ برزوا كأنهم الجبال المثل^(٤)
- ٥- لا يحتبى بفناء بيت مثلهم ❁ أبدا إذا عد الفعال الأفضل^(٥)
- ٦- ضربت عليك العنكبوت بنسجها ❁ وقضى عليك به الكتاب المنزل
- ٧- أين الذين تسامى دارما؟ ❁ أم من إلى سلقى طهية تجعل^(٦)
- ٨- يمشون فى حلق الحديد كما مشت ❁ جرب الجمال بها الكحيل المشعل^(٧)
- ٩- والمانعون - إذا النساء ترادفت ❁ حذر السباء - جمالها لا ترحل^(٨)
- ١٠- وإذا دعوت بنى فقيم جاء فى ❁ مجر له العدد الذى لا يعدل^(٩)

-
- (١) سمك : رفع ، بيتا : شرفا ونسبا ، الدعائم : جمع دعامة وهى عمود البيت ، أعز : أقوى .
 - (٢) المليك : الله جل جلاله ، حكم السماء : القوى المقدر
 - (٣) زرارة ومجاشع ونهشل أولاد دارم جد عشيرة الفرزدق يفخر بهم على جرير ، احتبى : جلس رازا ساقيه أمامه .
 - (٤) يلجون : يدخلون ، احتبوا : اشتملوا بالثوب ، المثل : الراسيات جمع مسائل يشبههم بالجبال الراسية .
 - (٥) فناء البيت : الساحة أمامه ، الفعال : الفعل الحسن والخطاب لجرير .
 - (٦) تسامى : تطاول وتفاخر ، دارم : قوم الفرزدق ، طهية : أم جماعة من قوم الفرزدق يفخر بهم على جرير ، تجعل هنا معناها تقرن بهم وتباهى .
 - (٧) الحلق : جمع حلقة وهى النرع . الكحيل ، القطران ، المشعل : الكثير المنتشر
 - (٨) المانعون : الحامون ، ترادفت : ركب بمضين خلف بعض ، لا ترحل : لا توضع عليها الرحال .
 - (٩) بنو فقيم : بطن من قبيلة دارم عشيرة الشاعر ، المجر : الجيش الكير الممدد ، لا يعدل : ليس له نظير .

- ١١- إذا بذخت ورايتي يمشى بها ❁ سفيان أو عدس الفعال وجندل^(١)
١٢- الأكثرون إذا يعد حصاهم ❁ والأكرمون إذا يعد الأول^(٢)
١٣- لين الزحام لغيركم فتحينوا ❁ ورد العشى ، اليه يخلو المنهل^(٣)
١٤- حلل الملوك لباسنا في أهلنا ❁ والسابغات إلى الوغى تنسربل^(٤)
١٥- أحلامنا تزن الجبال رزانة ❁ وتخالنا جنا إذا ما نجهل^(٥)
١٦- فادفع بكفك إن أردت بناعنا ❁ ثهلان ذا الهضبات هل يتحلل؟^(٦)
١٧- وأنا ابن حنظلة الأغر وإنسى ❁ فى آل ضبة المعم المخول^(٧)
١٨- فرعان قد بلغ السماء ذراهما ❁ وإليها من كل خوف يعقل^(٨)
١٩- فلئن فخرت بهم لمثل قديمهم ❁ أعلو الحزون به ولا أتسهل^(٩)
٢٠- زيد الفوارس ، وابن زيد منهم ❁ وأبو قبيصة ، والرئيس الأول^(١٠)

- (١) بذخت : فخرت فى كبر ، والأسماء المذكورة فى البيت من قوم الفرزدق .
(٢) حصاهم : عددهم ، الأول : يعنى الآباء والأجداد أو من المساعى والأفعال .
(٣) ورد العشى : ورود الماء فى المساء .
(٤) الحلة: إزار ورداء . الدابغات: الدروع ، الوغى: الحرب ، تنسربل: تنقص أى تلبس السربال وهو القميص أو الدرع .
(٥) الأحلام : العقول . رزانة : وقار . نجهل : نغضب ونسفه وننتقم .
(٦) ثهلان : جبل عظيم بنجد . والهضبات : جمع هضبة وهى القمة العالية . هل يتحلل؟ : هل يزول ويتحرك .
(٧) حنظلة : هو ابن مالك بن زيد من رهط الشاعر ، وأمه من ضبة . الأغر : المشهور بالعز والشرف ، المعم المخول : الكريم الأصم والأخوال .
(٨) الذرى : جمع ذروة وهى من كل شئ وأعلاه ، يعقل : يلجأ .
(٩) الحزون : جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض وضده السهل .
(١٠) زيد الفوارس هو زيد بن حصين سمي بذلك لأنه والى بين سبمة فوارس فى ثار أبيه حصين . وابنه هو الحصين بن زيد . وأبو قبيصة خوار بن عمرو ومنهم أيضا ، والرئيس الأول هو محلم بن سويط من سعد بن ضبة .

- ٢١- من يكون بنى كليب رهطه ❁ أومن يكون إليهم متخول^(١)
٢٢- يا ابن المراجعة ! أين خالك إننى ❁ خالى حبيش ذو الفعال الأفضل^(٢)
٢٣- خالى الذى عصب الملوك نفوسهم ❁ و إليه كان حياء جفنة ينقل^(٣)
٢٤- إنا لنضرب رأس كل قبيلة ❁ وأبوك خلف أئانه يتقمل^(٤)
٢٥- وشغلت عن حسب الكرام وما بنوا ❁ إن اللئيم عن المكارم يشغل
٢٦- إن التى فقتت بها أبصاركم ❁ وهى التى دمغت أبالك الفيصل^(٥)
..... إلى آخر الأبيات

(١) بنو كليب : رهط جرير ، يتخول : يدعيهم أخوالا من الخنولة .

(٢) ابن المراجعة : جرير ، حبيش : من بني ضبة وكان قد أسر عمر بن الحارث الغساني ، وجيز ناصيته واشترط عليه أن يبعث إليه كل سنة إتاوة حتى يموت .

(٣) الحياء : المعطية ، والمراد به الضريبة ، جفنة هو من أباء الغساسنة واليه ينسبون ، ويسمون آل جفنة ملوك الشام فى الجاهلية .

(٤) الرأس : الرئيس ، الأئان : الحمارة ، يتقمل : يكثر فيه القمل .

(٥) دمغ رأسه : ضربه حتى وصلت الضريبة إلى دماغه . الفيصل : مقطع الحرق فيما بيننا وبينكم ، ويقول : إن هذه القصيدة كانت تسمى الفيصل .

التعريف بالشاعر^(١)

الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، ومجاشع بن دارم إحدى قبائل تميم المشهورة في الجاهلية والإسلام ، ويكنى بأبى فراس ، وهي من كنى الأسد .

وقبيلة الفرزدق لها شأن عظيم في الجاهلية والإسلام ، وكانت هذه القبيلة تشغل الجزء الأكبر من شرقي الجزيرة ، وهي أقرب إلى أن تكون عدة قبائل في قبيلة واحدة .

ولد الفرزدق في كاظمة ، ونشأ في بيت عز وسيادة ، وقد لقب بالفرزدق لجهامة وجهه تشبيها له بالفرزدة ، وهي قطعة العجين ، أو الرغيف الضخم ، وقد تربي على الصفات الجاهلية الموروثة من القبيلة ذات العز والشرف والسيادة .

والفرزدق شاعر فحل ، عاش مع خلفاء بني أمية وأمرائها ، ومدحهم في قصائد رائعة ، وقد انصرف عن بعضهم في أحيان كثيرة وأخذ يهجوهم ويتجه بمدحه للعلويين .

وأما أسلوبه في مدحه فهو قوى متين لا يعجز عن فهمه أحد ، كل ما في الأمر أن كلماته الغريبة تقل في المدح عنها في الفخر ، ولعل ذلك راجع إلى أنه حريص كل الحرص على أن يكون أسلوبه في مدحه مفهوما مع متانته وقوته .

(١) راجع معجم الأدباء لباقوت الحموي ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وتاريخ الأدب العربي (المصر الإسلامي) د/ شوقي ضيف .

ومن أبياته التي يمدح بها سليمان بن عبد الملك قوله :

إليك ولي الحق لاقى غروضها ❁ وأحبابها إدراجها بالمناسم
نواهض يحملن الهموم التي جفت ❁ بنا عن حشايا المحصنات الكرائم
ليبلغن ملء الأرض نورا ورحمة ❁ وبرءا لآثار الجروح الكواليم
كما بعث الله النبي محمدا ❁ على فترة والناس مثل البهائم
ورثتم قناة الملك غير كلاله ❁ عن ابني مناف عيد شمس وهاشم
ترى التاج معقودا عليهم كأنهم ❁ نجوم حوالى بدر ملك قماقم

وعندما يفتخر الفرزدق فإنه يعتمد على رصيد من المجد
والشرف ، فجده صعصعة سيد مطاع في قومه ، وأبوه غالب على مثل
جده ، رئيس في قومه ، ومن زعماء تميم في الإسلام ، وقد اشتهر
بالكرم ، إلى ذلك أن فخره كان مقسما بين آبائه وأجداده .

وأما أسلوبه في فخره فهو قريب من أسلوبه في مدحه ، فهو
قوى متين، تتخلله أحيانا كثيرا الألفاظ الغريبة .

ومما قاله يقخر فيه :

لنا العزة القعساء والعدد الذى ❁ عليه إذا عد الحصى يتخلف
ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ❁ وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وقد علم الجيران أن قدورنا ❁ حنوا من لأرزاق والريح زفرف
والفرزدق شاعر هجاء توجه بمعظم هجائه إلى معاصره
جرير، وهجاؤه مقرون بالفخر غالبا ، وفي هجائه كثير من السباب
والفحش والسوء .

ومن هجائه لجرير قوله :

قنافذ دراجون حول جحاشهم ❁ لما كان إياهم عطية عودا
وقوله :

وهل يا ابن ثغر الكلب مثل سيوفنا ❁ سيوف ولا قبض العديد القمام
ومما قاله في بنى قيس بن عاصم عندما لجأت إليهم
زوجته النوار :

بنى عاصم لا تلجنوها فإنكم ❁ ملاجئ للسوات دسم العمام
وشعر الفرزدق يشتمل على معان إسلامية كثيرة ،
مثال ذلك قوله :

ولن يقدم نفسا قبل ميبتها ❁ جمع اليمين ولا الصمصامة الذكر
وقد شغله شعر الهجاء عن شعر الحرب واقتصر في وصفه
للحرب بأبيات بثها في ثنايا قصائده الأخرى . فهو في هجائه ليزيد بن
مسعود بن خالد يأتي بأبيات في الفروسية عند قومه تحس منها أنه لم
يلم بوصف المعارك ، ولم يبذل جهدا في تصوير وقائعها والتحام
جيوشها ، وكأنه لم يعرف شيئا عن فنون الحرب يقول :^(١)

وكم من رئيس غادرته رماحنا ❁ يمج نجيعا من دم الجوف أحمر
ونحن صبحنا الحى يوم قراقر ❁ خميسا كأركان اليمامة مدرسا
ونحن أجزنا يوم حزن ضريبة ❁ ونحن منعنا يوم عينين منقرا
ونحن حدرنا طينا عن جبالها ❁ ونحن حدرنا عن ذرى الغور جعفرا
بأرعن جرار تقئ له الصوى ❁ إذا ما اغتدى من منزل أو تهجرا
له كوكب إذ زرت الشمس واضح ❁ ترى فيه منا دارعين وحسرا

(١) الديوان : ١٩٥/١ .

****الدراسة الغنية**

من هذه القصيدة يتضح أن شعر الفرزدق يمتاز عموماً بالمميزات الآتية:

- (١) شعر الفرزدق في الفخر لا يشق له غبار .
 - (٢) الهجاء عند الفرزدق أقل حظاً من الفخر .
 - (٣) ما جاء في شعر الفرزدق من ألفاظ غريبة إنما هو ناتج عن حياة البداوة التي كان يعيشها .
 - (٤) الفرزدق جيد التصوير ، بارع في ابتكار الصور .
 - (٥) شعر الفرزدق وإن كانت معانيه تميل إلى مثل العرب في الجاهلية فإنه يشتمل على معان إسلامية .
 - (٦) ما يقال من أن الفرزدق ينحت من صخر إنما يشار به إلى أن معانيه محدودة ولكنها قوية .
 - (٧) أسلوب الفرزدق مع قوته ومتانته فيه تعقيد ، وشغره وعر القوافي، صعب الألفاظ ، قصير القصائد نسبياً .
 - (٨) يخالف الفرزدق القواعد النحوية أحياناً قليلة.
- والفرزدق يفخر بأبائه وأجداده العظماء ، وسأيرت ألفاظه وعباراته الجو النفسى ، وتمشت مع طبيعة الموضوع وهو الفخر والهجاء ، فجاءت الألفاظ قوية ، وجاءت العبارات جزلة محكمة تقترح الأذان ، وتلك طبيعة الفرزدق كما قلنا سابقاً : (ينحت من صخر) .
- مع قلة الصور الواردة في الأبيات ، فإنه يلاحظ أنها تمتاز بقوة التأثير ، وأنه تأثر في بعضها بالقرآن الكريم ، وتأثر في بعضها الآخر بالبيئة ، وعلى القارئ أن يطيل النظر في الأبيات لمتابعة كل هذه المناظر .

ومن المعروف أن الأمويين قد أثاروا النعرات القديمة والعصبيات القبلية، فشاع بين الشعراء الهجاء الشخصي والقبلي ، وكان من أبرز أعلام هذا اللون من الشعر الشعراء (جرير والفرزدق والأخطل) .

وقد نشأ بين الشعراء الثلاثة هذا اللون من الشعر الذي يسمى (فن النقائض) وطريقته أن ينظم شاعر قصيدة موضوعها الفخر والهجاء من وزن بعينه وقافية بعينها ، فينقضها شاعر آخر بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية .

وأحسب أن هؤلاء الشعراء الثلاثة لو خلصوا إلى شعر الفروسية وإلى حروب العصر ، فوصفوا وقعاتها ، وأسكبوا خيالاتهم الرائعة في هذا الوصف ، ولم يكتفوا بأبيات يبتونها بين شعر المدح والفخر والهجاء لخلدوا فروسية الأبطال الذين أنبتهم عصر بنى أمية ، لما روى عن خوارق بطولاتهم ، وروائع شجاعتهم وإقدامهم في الحرب، والجدود بأنفسهم فيها .

رابعاً : قصة غزلية للشاعر

جرير بن عطية الخطفي

هذه قصة غزلية يبدأها الشاعر بالحديث عن رحيل الأحبة ، ثم ينتقل إلى وصف حاله وما أصابه بعد هذا الرحيل ، وهو في هذا الوصف ينتقل من وصف المحبوبة إلى إرسال التحية بالرسائل ، في أسلوب حوارى يتسم بالسهولة والرفقة ويجعل القصيدة من قصائد الغزل المميزة .

النص :

بان الخليط ولو طوعت ما باننا ❁ وقطعوا من حبال الوصل أقرانا^(١)
حي المنازل إذ لا نبتغى بدلا ❁ بالدار دارا وبالجيران جيرانا
قد كنت في أثر الأظعان ذا طرب ❁ مروعا من حذار البين محزانا^(٢)
لو تعلمين الذى نلقى أويت لنا ❁ أو تسمعين لذى العرش شكوانا^(٣)
كصاحب الموج إذ مالت سفينته ❁ يدعوا إلى الله إسرا را وإعلنا
يا أيها الراكب المزجى مطيته ❁ بلغ تحيتنا لقيت حملانا^(٤)
بلغ رسائلنا عنا خف حملها ❁ على فلائص لم يحملن حيرانا^(٥)
نهدي السلام لأهل الغور من ملح ❁ هيهات من ملح بالغور مهدانا^(٦)

(١) الخليط : المخالط .

(٢) الظمانن ، مفردما الظمينة : الهودج فيه امرأة أم لا .

(٣) أويت : رقت .

(٤) المزجى : يسوق . لقيت حملانا : أى رزقتك الله ما يحملك .

(٥) فلائص : مفردما ، قلووس : نوق . ولم يحملن حيرانا : يريد أنهن حول لم يلحقن

(٦) ملح : ماء لبنى العدوية .

أحبب إلى بذاك الجزع منزلة ❁ بالطلح طلحا وبالأعطان أعطانا^(١)
يا ليت ذا القلب لاقى من يعلله ❁ أو ساقيا فسقاه اليوم سلوانا^(٢)
أو ليبتها لم تعلقنا علاقتها ❁ ولم يكن داخل الحب الذى كانا
هلا تخرجت مما فعلت بنا ❁ يا أطيب الناس يوم الدجن أردانا^(٣)
قالت : ألم بنا إن كنت منطلقا ❁ ولا إخالك بعد اليوم تلقانا
يا طيب هل من متاع تمتع به ❁ ضيفا لكم باكرا يا طيب عجلانا^(٤)
ما كنت أول مشتاق أخى طرب ❁ هاجت له غدوات البين أحزانا
يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ❁ ردى على فؤادى كالذى كانا
ألست أحسن من يمشى على قدم ❁ يا ألمح الناس كل الناس إنسانا
لقد كتمت الهوى حتى تهيمنى ❁ لا أستطيع لهذا الحب كتماننا
لا بارك الله فيمن كان يحسبكم ❁ إلا على العهد حتى كان ما كان
من حيكم فاعلمى للحب منزلة ❁ نهوى أميركم لو كان يهواننا!
لا بارك الله فى الدنيا إذا انقطعت ❁ أسباب دنياك عن أسباب دنيانا
يا أم عثمان إن الحب عن عرض ❁ يصيب الحليم ويبكى العين أحيانا
ضننت بموردة كانت لنا شرعا ❁ تشفى صدى مستهان القلب صديانا^(٥)
كيف التلقى ولا فى القبط محضركم ❁ منا قريب ولا مبداك مبدانا
نهوى ترى العرق إذ لم نلق بعدكم ❁ كالعرق عرقا ولا السلان سلانا^(٦)
ما أحدث الدهر مما تعلمين لكم ❁ للحبل صرما و لا للعهد نسيانا
إن العيون التى فى طرفها حور ❁ قتلنا ثم لم يحيين قتلنا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ❁ وهن أضعف خلق الله أركانا

(١) الطلح : شجر . الأعطان : مباركة الابل ، واحدها عطن .

(٢) السلوان : ما يسليه .

(٣) الدجن : ظل الغيم فى اليوم المطير .

(٤) طيب : أراد طيبة .

(٥) الصدى : العطش . والصدىان : العطشان .

(٦) العرق : واد لبني حنظلة بن مالك . والسلان : واد لبني عمرو بن تميم .

ظنى بكم حسن من خيرة بكم ❁ فلا تكونوا كمن قد كان ألوانا
بتنا نراها كأننا مالكون لها ❁ يا ليتها صدقت بالحق رؤيانا
قالت تعز فإن القوم قد جعلوا ❁ دون الزيارة أبوابا وخزاننا
لما تبينت أن قد حيل دونهم ❁ ظلت عساكر مثل الموت تخشانا
يا أم عثمان ما تلقى رواحنا ❁ لو قست مصيبتنا من حيث ممسانا
تخدى بنا نجب دمي مناسمها ❁ نقل الحزابي حزاننا فحزاننا^(١)
ترمى بأعينها نجدا وقد قطعت ❁ بين السلوطح والروحان صنوانا^(٢)
يا حبذا جبل الريان من جبل ❁ وحبذا ساكن الريان من كاننا
وحبذا نفحات من يمانية ❁ تأتئك من قبل الريان أحياننا
هبت شمالا فذكرى ما ذكرتكم ❁ عند الصفاة التي شرقي خوراننا^(٣)
هل يرجعن، وليس الدهر مرتجعا ❁ عيش بها طال ما أحولى وما لانا

(١) مناسمها : ألقابها . النقل : العدو . الحزابي : النشور واحدها : حزباء . الحزان : جمع

حزيز ، وهو ما انقاد وغلظ في الأرض .

(٢) السلوطح : بالجزيرة . الروحان : أقصى بلاد بني سعد .

(٣) خوران : من عمل دمشق . وهي اليوم محافظة في جنوبى سورية .

التعريف بالشاعر (١)

ينتسب جرير بن عطية بن الخطفى لقبيلة كليب اليربوعية التميمية ، وكان جده حذيفة الملقب بالخطفى شاعرا واسع الاطلاع على اللغة وعلى أنساب العرب .

ولد جرير سنة ٣٠هـ بأرض اليمامة ، ونشأ فقيرا يرعى إبل قومه وأغنامهم ، وكانت نشأته فى بيئة بدوية يتوارث أبناؤها الشعر ، وقد دعاه قومه بنو يربوع للإقامة فى البصرة حين رأوا الفرزدق يقيم بها ، وينظم الأشعار فى سب جرير وقومه ، فما كان من جرير إلا أن استجاب لقومه واتحدر إلى البصرة وأقام فيها سنوات .

وقد استعر الهجاء بينه وبين الشعراء فى سوق المريد ، بيد أن معركته الكبيرة فى الهجاء كانت مع الفرزدق ، ثم مع الأخطل ، وبقية الشعراء الذين قيل إنهم بلغوا الثمانين ، والمعروف أن الشاعر قد غلب هؤلاء جميعا .

وجرير من شعراء العصر الأموى الذين اتخذوا شعرهم وسيلة للتكسب ، فقصده به الخلفاء والأمراء ومدحهم ، وقد جاهر فى قصيدته التى توجه بها لمدح عبد الملك بن مروان بطلب العطاء ، كما جاهر بالشكوى للخليفة من الفقر المدقع بطريقة لم يكن الشعراء العرب القدامى يرتضونها لأنفسهم .

(١) انظر الأغاني ، الشعر والشعراء ، وخزانة الأديب ، وتاريخ الأدب العربى (المصر الإسلامى) د. شوقى ضيف .

ومن أبرز الذين مدحهم جرير ، ونال هباتهم وعطاياهم من الخلفاء : عبد الملك بن مروان ، والوليد بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، ومن الولاة ! الحجاج بن يوسف الثقفي ، وخالد بن عبد الله القسري ، والمعلوم أن الحجاج هو الذي أوصله إلى دار الخلافة ، وشعر جرير يمتاز بالرقّة والعذوبة مع الفصاحة والمتانة، وهو شعر جميل الوقع ، تتقبله النفس ، وتستمتع بقراءته ، لا تجد فيه ثقلا ولا تعقيدا ، وهو يشمل الهجاء والمدح ، والرثاء والغزل ، ويرق في الغزل ، ويكون قويا في المدح والهجاء ، وعلى هذا فشعره خال من التكلف ، وهذا هو السبب الذي جعل أسلوبه عذبا لنا لا قسوة فيه ولا جفاء ، أما ما يمكن أن يقال عن معانيه فإنها مستمدة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، بالإضافة إلى معارف العرب العامة ، وأكثر شعره في الهجاء ، ثم يليه المدح ، وله رثاء جيد مقبول ، أما غزله فهو قليل ، وله رجز ولكنه قليل كذلك .

وجرير يقصر غزله على زوجاته وإمائه ، ويبعد فيه عن الفحش ، ومن المعلوم أن بعض أشعاره في الغزل يتغنى بها لما تتمتع به من لين ورقة في الأسلوب ، وقد فاقت أشعاره في الغزل شعر العذريين الذين كثروا في عصره أمثال : جرير ، وكثير ، وقيس بن ذريح ، وعلى وجه الخصوص في الرقة والحلاوة .

وشعر جرير مناسب للغناء ، مطاوع له ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل الأصفهاني صاحب الأغاني يعني بنقل أخبار كثيرة عن شعره المغنى .

وقد اختلف الأقدمون فى جرير وزميلييه (الأخطل والفرزدق) اختلافًا كبيرًا ، فمنهم من أعجب بجرير وشعره ، ومنهم من أعجب بشعر الأخطل ، وجرير بعامة يمتاز فى شعره بعذوبة كلمه ، وحلاوة نغمة .

الدراسة الفنية

برع جرير فى معظم فنون الشعر كالهجاء والثناء ، والمدح ، والتسيب ، وكان الهجاء هو الفن الغالب عليه ، وهو وإن لم يصل فخره إلى مستوى فنون الشعر الأخرى فإن ما يمكن أن يقال عنه إنه كثيرًا ما يتقدم الأخطل والفرزدق وخاصة فى الموضوعات التى تتطلب دقة فى الإحساس ورقة فى الشعور ، ومن ثم سبقهما فى موضوعات : الرثاء والغزل وشعر الأسرة ، والهجاء الخالص .

والأبيات المذكورة تمثل قصيدة شعرية لشاعر عفيف ، يصف حالة من حالاته ، يأتي فيها بمعانى الحب العفيف ، والغزل البدوى الرقيق ، الذى يصور أوصاف المحبين والعاشقين .

وتبدأ الأبيات بحديث الشاعر عن رحيل الأحبة على عادة الشعراء ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف حاله بعد فراقهم ، ثم يخاطب المحبوبة قائلاً لها :

لو تعلمين الذى نلقى أويت لنا ❦ أو تسمعين إلى ذى العرش شكوانا

وبعد أن يخاطب محبوبته نراه يلجأ إلى إرسال التحية ، وما يكاد القارئ يقرأ هذه الرسائل حتى يجد الشاعر يذكر كثيرا من الأماكن، بل يجده يقيم موازنة بينها في أسلوب يجعل القارئ يتابع القراءة بلهفة وشوق ، يساعده في ذلك سهولة الألفاظ ، وسلامة التراكيب ، وتجنب الشاعر للتعقيد .

وبعد أن يصف حالته نراه يتوجه بالحديث إلى المحبوبة ، ويأخذ يناديها بأسماء متعددة على عادة الشعراء في إخفاء أسماء من يتغزلون بهن ، وهو في كل ذلك يصف حبه وشوقه ، وينعتها بأجمل النعوت وأحسن الأوصاف .

والقصيدة من قصائد جرير المميزة في باب الغزل ، وتتميز بالرقّة والعذوبة ، والبعد عن الفحش ، والإيحاء المستمر بمعاني الحب العفيف ، والغزل البدوي الرقيق ، والملاءمة التامة لعفة النفس ، وللذوق السليم التقى .

أما خيال جرير فيمتاز حقا ، وخصوصا حين وصف المحبوبة بأنها أجمل من مشى على الأرض ، وأملح الناس عينا .

ومن أخيلته الجميلة ما قاله عن عيون المحبوبة من أنها تصرع الناظر إليها :

إن العيون التي في طرفها حور ❁ قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ❁ وهن أضعف خلق الله إنسانا

خامسا قصيدة فى الرثاء لشاعر الإباضية

عمرو بن الحصين

تمهيد

الإباضية آخر حركات الخوارج فى العصر الأموى ، وهى أولى حركاتهم فى جنوب الجزيرة العربية سنة ١٠٧هـ .

وهذه الفرقة نسبة إلى عبد الله بن إباض ، وقد بويع إماما للإباضية سنة ١٢٩هـ ، وفى صنعاء قدم إليه الخوارج من كل صوب حتى عظم شأنهم بين أهل اليمن .

ولعل السبب المباشر لذلك هو القائد الشجاع أبو حمزة الشارى ، فقد قاد جيشا من أهل اليمن ، وتوجه به إلى مكة فى موسم الحج سنة ١٢٩هـ ، فتقهقر أمامه الأمير الأموى عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك ، وانتصر أبو حمزة انتصارا مروعا على جيش عبد العزيز بن عمر بن عثمان بن عفان فى معركة " قديد " .

وقد دخل أبو حمزة المدينة ومكث فيها قرابة ثلاثة شهور ، وألقى من فوق منبر الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته المشهورة التى تشيد بتقوى رجاله وشجاعتهم ، والتى رسم فيها صورة مؤثرة لقتلى الخوارج كوسيلة يحاول بها استثارة عواطف مستمعيه من الخوارج .

وسرعان ما زالت قوة أبى حمزة أمام جيش الشام بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية ، الذى قدم المدينة فى جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ ، وقد فر أبو حمزة على أثر الهزيمة الى مكة ، لكن ابن عطية لم يلبث أن تعقبه فى مكة ؛ ودارت معركة عنيفة قتل فيها أبو حمزة ، كما قتلت امرأته الجعيداء ، وصلب أبو حمزة مع من صلب من الشراة .

وقد رثى شاعر الإباضية عمرو بن الحصين أبا حمزة وغيره
من الشراة بقصيدة طويلة^(١) تعد من مختار شعر العرب ، وقد استهلها
بالبكاء فقال :

هبت قبيل تبلج الفجر ❁ هدد تقول ودمعها يجرى
إذ أبصرت عيني وأدمعها ❁ ينهل وا كفها على النحر
أنى اعتراك وكنت عهدى لا ❁ سرب الدموع ، وكنت ذا صبر
أقذى بعينك ما يفارقها ❁ أم عائر أم ما لها تذر
أم ذكر إخوان فجعت بهم ❁ سلخوا سبيلهم على قدر
فأجبتها بل ذكر مصرعهم ❁ لا غيره عبراتها يمرى
ثم تحسر على إخوانه الشهداء ، وأخذ يشيد بهم فقال :

يا رب أسكنى سبيلهم ❁ ذا العرش ، واشدد بالتقى أزرى
فى فتية صبروا نفوسهم ❁ للمشرفية والقنا السمر
تأله ألقى الدهر مثلهم ❁ حتى أكون رهينة القبر
أوفى بذمتهم إذا عقدوا ❁ وأعف عند العسر واليسر
متأهبون لكل صالحة ❁ ناهون من لاقوا عن النكر
صمت إذا احتضروا مجالسهم ❁ وزن لقول خطيبهم وقر
ألا تجيئهم فإنهم ❁ رجف القلوب بحضرة الذكر
متأهون كأن جمر غضا ❁ للموت بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم ❁ لخشوعهم صدروا عن الحشر
فهم كأن بهم جوى مرض ❁ أو مسهم طرف من السحر
لا ليهم ليل فيلبسهم ❁ فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كذا خلسا وأونة ❁ حذر العقاب فهم على دعر

(١) شعر الخوارج : ٢٢٣ - ٢٢٧ .

ويعود إلى التفجع فيقول :

كم من أخ لك قد فجعت به * قوام ليلته الى الفجر
متأوها يتلو قوارع من * آى الكتاب مفرح الصدر
نصب تجيش بنات مهجته * م الخوف جيش مشاشة القدر
ظمان وقدة كل هاجرة * تراك لذته على قدر
تراك ما تهوى النفوس إذا * رغب النفوس دعا إلى المزرى

تعليق عام :

شعر عمرو بن الحصين يتميز بطول النفس بطريقة لا تعهد عند
أقرانه من شعراء الخوارج .

وقصيدته التى بين أيدينا تتجاوز أبياتها الخمسين بيتا ، وهو عدد
لم نجده فى قصيدة لغيره من الشراة .

والقصيدة تتميز إلى جانب طولها باستقصاء الموضوع الذى
يرمى إليه الشاعر فى أسلوب قصصى يتميز بدقة فى
الوصف ، ووضوح فى المعانى مع بساطتها .

وشعر الخوارج فى جملة لم يتجاوز حياة الشعراء الفرسان
ومشاعرهم نحو حياتهم ، فهو يصور واقعهم الذى يعيشونه ، ويصور
إحساسهم بهذا الواقع ، فهو شعر ذاتى استوحوه من حياتهم الشخصية
ومن أحاسيسهم ومشاعرهم نحو هذه الحياة ، فهم لا يتحدثون عن شئ
لذات هذا الشئ ، وإنما يتحدثون عنه من حيث علاقتهم بهذا
الشئ ، وحين يتحدثون عن الأمور التى يعينهم الحديث فيها فإننا نجد

حديثهم تجربة حقيقية لما يحسونه ولما يرونه حولهم ، ولولا ما يندفع
فى شعر الخوارج من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسنا
بالسام ، لأنه ليس هناك فارق كبير بينهم فى المعانى ولا فى الصياغة .

وكون شعر الخوارج تجربة حقيقية أمر لا يحتاج إلى
توضيح ، فلو رجعنا إلى الأعراض الشعرية التى نظموا فيها لوجدناها
تصويرا لواقعهم الذى يعيشونه ، ولوجدنا التصوير نفسه
واقعيًا ، فالموضوع واقعي وتصويره أيضا واقعي ، وقد ألجأتهم حياتهم
إلى أن يكون شعرهم واقعيًا ، يقولون الشعر فيما يعيشونه ويفعلونه لا
فيما يتصورونه ويتخيلونه ، ولذلك قل فى شعرهم الحديث عن
الحب ، وما ورد من غزل فى أشعارهم إنما كان القصد منه هو
الحماسة والحرب والشجاعة .

وإذا قلنا إن شعراء الخوارج الفرسان لم يقولوا شعرهم لذات
الشعر ، وإنما يقولونه لأنفسهم حتى صار أشبه ما يكون بالمذكرات
الشخصية التى يسجل فيها الشخص خواطره ومشاعره ومشاهداته فى
نطاق حياته ومعيشته وصلاته وصراعه مع من حوله .. حين نقول ذلك
فإننا نؤكد أن شعر الفروسية يمثل حقيقة التجربة الشعرية فى أصدق
صورة فنية ترجى من شاعر ، وأن شعرهم بلغ فى هذه الناحية أقصى
ما ينتظره النقد من صدق التجربة وصدق الشاعر فى نقلها .

وشعر الخوارج يدور حولهم فيصور إيمانهم ويفخر بتضحياتهم
وبانتصاراتهم ، ولما كان شعرهم وحى جهادهم ذهب الكثرة الكثيرة
منه فى تصوير حروبهم وتمجيد بطولاتهم وشجاعتهم واستعداد الموت
والتضحية فى سبيل معتقدهم ، ولذلك يصح لنا أن نقول دون أدنى
غرامة إننا نقرأ أشعار الخوارج فنحس كأننا نراهم ونرى حياتهم
وظروفهم ، ونلمس بحواسنا البواعث التى دفعتهم إلى هذا اللون من
الشعر .

وموضوعات شعر الفروسية عند الخوارج موضوعات خاصة بهم من حيث أنهم أحسوها ، وصارعوا ظروفها ، وعبروا تعبيراً حقيقياً عما كانوا عليه بالفعل ، فشعرهم يمثل بحق حياتهم الحربية وآمالهم العريضة التي من أجلها قاموا بتلك الحروب ، وخاضوا تلك الأحداث القاسية .

فالشجاعة والمروءة والنجدة وقسوة الحياة .. كل هذا عاناه شعراء الخوارج معاناة حقيقية ، ونحن لا ننكر عليهم هذه المعاناة ، ذلك لأنها جاءت منسجمة مع نفسيتهم الثائرة الأبية المستهينة بكل شئ المحترقة لكل شئ من حطام الدنيا .

ويتجلى الصدق العاطفى فى رثاء عمران بن حطان لأبى بلال مرداس ، فلقد أحبه وأعجب به وتمثله كما تمثلت فروسيته ، وضاقته به الدنيا بعد رحيله عنها .

يقول (١) :

لقد زاد الحياة إلى بغضا ❁ وحبا للخروج أبو بلال
وعروة بعده سقيا ورعيا ❁ لعروة ذى الفضائل والمعالي
أحاذر أن أموت على فراشى ❁ وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
فالأبيات وصف لتجربة حقيقية مر بها الشاعر وعانها ، وهى تثبت حزنا صادقا على فقد عزيز استحالته الدنيا بعده إلى دنيا موحشة ، وصدق الشعور هنا هو الذى كسى الأبيات هذا التأثير ، وهو الذى أوحى بتتابع جرسها الحزين .

(١) شعر الخوارج : ١٤٢ .

وحيث نقرأ أبيات قطري بن الفجاءة^(١) :

لا يركذن أحد إلى الإحجام ❁ يوم الوغى متخوفا لحمام
فلقد أرانى للرماح درينة ❁ من عن يمينى مرة وأمامى
حتى خضبت بما تحدر من دمي ❁ أكناف سرجى أو عنان لجامى
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب ❁ جذع البصيرة قارح الإقدام
متعرضا للموت أضرب معلما ❁ بهم الحروب مشهر الأعلام
أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى ❁ نحر الكريم على القنا بحرام
يخيل إلينا أننا نرى بطولته وشجاعته وإقدامه ، بل إن البيت
الواحد من هذه الأبيات ليطلعنا على صورة من حياة قطري بن الفجاءة
كفارس ، ويشرف بنا على معيشته فنعلم منه أنه يعيش حياة الفروسية.

ولعل الظاهرة التي تسترعى النظر أن أدب الخوارج بصفة عامة
يتمثل فى الصدق ، ومعظم شعراء الخوارج كانوا من زعماء المذهب
الخارجى ومن أساطين الدعاة لهذا المذهب ، وكان بعضهم من أرباب
السيف ، ولعل هذا هو السبب فى أن جاء شعرهم خلاصة تجربة ذاتية
حية بعيدا عن التكلف والرياء وخرج فى جملته ملتها
متدفقا ، تشع منه استهانتهم بالحياة ، والإسراع إلى الموت فى ميدان
الجهاد .

(١) المصدر نفسه : ١١٢ .

وقد أحس خصوم الخوارج بنفاذ قولهم إلى القلوب ، وشهدوا لهم بذلك وتخوفوا من تأثيرهم على الناس (١) ، ولعل أهل الحديث قد فطنوا إلى ناحية الصدق بصفة عامة عند الخوارج فعدوهم أصدق أهل الأهواء حديثاً (٢).

يضاف إلى ذلك أن شعر الخوارج في أكثره لم يكن يخاطب العقول والأفهام ، وإنما كان يخاطب المشاعر والوجدان . وخرج شعرهم نتيجة لهذا تعبيراً عن مشاعرهم وأحاسيسهم لا عن عقائدهم وتعاليمهم .. ولهذا فمن السهل على من يقرأ أشعارهم أن يتبين منها قوة مشاعرهم الدينية ، وأن يرى في مجموع شعرهم صورتهم المثالية وما تميزوا به من طول جهاد وتعبد .

وكان لهذا الطابع من الصدق الفني أثر واضح في خلق التشابه والتكرار في شعر الخوارج حتى أشكلت نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين ، واختلفت الروايات حول نسبة بعض الشعر لشاعر أو لغيره . والمتتبع لهذا الخلاف يجد أنه قد مس معظم شعراء الخوارج.

فقد اختلف الرواة في قول القطري بن القجاعة (٣) :

لعمرك إني في الحيرة لزاهد ❁ وفي العيش ما لم ألق أم الحكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت ❁ طعان فتى في الحرب غير ذميم
فمن الرواة من يرويه لقطري ، ومنهم من يرويه لعمرو
القنا ، ومنهم من يرويه لحبيب بن سهم التميمي ، ومنهم من يرويه
لعيبيد بن هلال اليشكري .

(١) أدب السياسة في العصر الأموي د. أحمد الحوفي : ٢٢٨ .

(٢) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني: ١٢٧/٨. حيدر آباد ١٣٢٧هـ .

(٣) شعر الخوارج : ١٠٦ .

يقول صاحب الأغاني : " ذكر المبرد أن الشعر . يريد البيهقيين المذكورين . لقطري بن الفجاءة ، وذكر الهيثم بن عدى أنه لعمر القنا ، وذكر وهب بن جرير أنه لحبيب بن سهم التميمي ، وذكر أبو مخنف أنه لعبيده بن هلال اليشكري ، وذكر خالد بن خدّاش أنه لعمر والقنا أيضا " (١) .

ومن أمثلة الخلاف في نسبة الشعر ما قيل في قول قطري بن الفجاءة أيضا (٢) :

إذا قلت تسلو النفس أو تنتهي المنى ❁ أبي القلب إلا حب أم حكيم
منعمة صفراء حلوا دلالتها ❁ أبيت بها بعد الهدو أميم
قطوف للخطى محطوة المئن زاتها ❁ مع الحسن خلق في الجمال عميم

يقول صاحب الأغاني : " الشعر - أي هذه الأبيات - مختلف

في قائله ، فمن الرواة من يرويه لصالح بن عبد الله العيشمي ، ومنهم من يرويه لقطري بن الفجاءة ، ومنهم من يرويه لعبيده بن هلال اليشكري (٣) . وإن كنت أرى أن هذا الشعر والذي سبقه يترجّح كونه لقطري . لأن أم الحكيم عرفت به وعرف بها ، ومن المستبعد أن يقول فيها مثل هذا الشعر إلا حبيبها المرموق ، ولعل السبب في خلق التشابه والتكرار في شعر الخوارج وإشكال نسبة كثير من هذا الشعر إلى أصحابه الحقيقيين ، أن أكثر ما عبر عنه شعراء الخوارج محدود مشترك بينهم جميعا ، فهم يتغنون بعاطفة واحدة ، وينزعون إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه وهو فناؤهم في عقيدتهم وخضوعهم لسلطانها وقصرهم اهتمامهم عليها .. ولا عجب ؛ فالمشرب الذي شربوا جميعا منه واحد ، فلم تتميز من ثم شخصياتهم ولم

(١) الأغاني : ٢٢٢١/٦ . ط الشعب .

(٢) شعر الخوارج : ١٠٨ .

(٣) الأغاني : ٢٢٢٠/٦ . ط الشعب .

تتباين ، وكانوا على قوة المشابهة لدرجة أن ظهر شعرهم وكأنه صور متعددة لنمط واحد (١) .

والحق نقول إن هناك صورة أخرى من الاختلاف ، وهى أننا نجد بعض أبيات لشاعر من شعراء الخوارج قد انبثت فى شعر شاعر خارجى آخر ونسبت إليه ، ومن صور الاختلاف التى لا تخلو من غرابة أننا نرى القصيدة المختلف فى نسبيتها قد وردت فى صور مختلفة من حيث ألفاظها وترتيب أبياتها و بعض عباراتها . وخير مثال لذلك قصيدة "يوم دولاب" لقطرى بن الفجاءة (٢) .

وهذا التشابه والتكرار لا يغض من شأن شعر الخوارج ، كما لا ينقص من درجة الصدق والإخلاص فيه ، لأنه ليس تكراراً بالتقليد أو استدعاء لنموذج شعري غالب ، ثم إن الشعر لم يكن يمثل عندهم فناً ينقطعون له أو يتنافسون فى تجويده ، فهم فى غنى عن تقليد السابقين أو مجاراة المعاصرين ، لأن حياتهم قد وفرت لهم مادة غزيرة لفنهم استلهموها ولم يشتغلوا بغيرها .

والذى يؤكد هذا ويقويه أننا نجد شعرهم يمثل الحياة الشخصية لكل منهم فحين نقرأ شعر شاعر منهم فإننا نستشف منه حياة صاحبه ومذهبه فى الحياة وأسلوب معيشته . ولسنا فى حاجة - حين نود أن نعلم حياة الشاعر منهم وظروفه - إلى أن نستقصى شعره كله ، وإنما يكفى أن نلم بقدر من شعره فنعلم منه تفاصيل حياته ، وليس ببعيد عنا ما صنعه المؤرخون من اعتمادهم على شعر الخوارج فى استنباط أخبارهم وأحداث حياتهم وظروفها .

(١) انظر الفرق الإسلامية فى الشعر الأموى د. نعمان القاضى : ٤٥٥ وما بعدها . دار المعارف

. ١٩٧٠

(٢) انظر المصدر السابق : ٤٥٥-٤٥٨ .

وعلى ذلك فلا عيب على شعر الخوارج أن يكون قد صدر فى مواقف وأحداث بعينها ، وإنما العيب ألا يكون الصدق ملازماً لانفعال الشاعر منهم وأن يأتى شعره فلا ندرى أهو له أم لغيره ، أو أن يكون شعرهم تلبية للحزبية ومجازاة لأوضاع سياسية من غير أن يكون لهذه الأحداث أثر فى عواطفهم وأحاسيسهم .

ولعل الذى دفعنى إلى هذا الموضوع أن كثيراً مما نظمته شعراء الخوارج كان قد صدر فى مواقف وأحداث بعينها . وعلى هذا فإننى أرى أن شعر المناسبات والمواقف كأى شعر ، فإن انبثق من عاطفة صادقة جاء شعراً يقبله الذوق ويرضى به ، ولا ضرر عليه أنه فى المناسبة ، فكل الشعر العاطفى الصادق إنما تدعو إليه مناسبة من المناسبات العاطفية من حب وإعجاب وغير ذلك من العواطف التى هى البواعث الحقيقية للشعر ، فالشعر الصادق هو ما كان مرآة لعصره ، وسجلاً لبيئته وديواناً لأيامه ، وتعبيراً لأحاسيس قائله^(١) . وطبيعة الأديب الوظيفية تسمح له بالحرية فى تناول ما يسترأى فى نفسه^(٢) .

وفوق ذلك فكثير من شعر الخوارج فى المناسبات والمواقف نرى الشاعر فيه يطغى على المناسبة ويسمو فوقها ، ولا يبدو أمام القارئ أثر للمناسبة ، وإنما يجد حظ العاطفة والوجدان والتجربة الشعرية أكبر بكثير من حظ المناسبة والظروف الطارئة ، ذلك لأن المناسبة قد هزت وجدان الشاعر وأثارت شاعريته ، فبدأ وكأن نفسه تتحرك بالهام منه لا بالهام خارجى عنه ، ثم إن المناسبات قد أتت آنذاك متوافقة مع شعراء

(١) التجديد فى الأدب المصرى الحديث د. عبد الوهاب حموده : ١٢٠٠ . دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى .

(٢) قضايا النقد الأدبى الحديث د. محمد السعدى فرهود : ١٥٦ . دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

الخوارج ودوافعهم النفسية ، وكل ما للمناسبة من دور أنها حركت فحسب التجربة التي بداخل الشاعر ، ولا شك أن الخوارج كانوا غلاة في عقيدتهم ، وكانوا كذلك غلاة في حربهم ، فكم خربت لهم دور وكم سفكت لهم دماء ، حتى قست قلوبهم في سفك الدماء والتخريب وغلظت أكبادهم في الحرب وفنونها .

ولا شك أن المناخ العام في عصر بنى أمية كان مجالاً رحباً يتسع لقوة العاطفة وصدقها ، فالعصر عصر أحزاب سياسية حقيقية ، وقد نشط كل حزب في محاربة الأحزاب الأخرى ومحاولة إجهاضها والنيل منها ، والخوارج لهم باع طويل في هذا الصراع ، فمن ثم كان ميدانهم في الشعر أرحب وأوسع وهذا هو السبب في تأجج العاطفة عندهم حتى خرج شعرهم وكأنه قطعة منهم ومن حياتهم ، تتجلى فيه التجربة وتتمثل فيه أحداث العصر ، ولقوة العاطفة عند الكثير من شعرائهم خرجت طريقتهم في الوصف تمتاز بالتصوير الفني الجميل .

ومن ينظر إلى قول قطري بن الفجاءة (١) :

أقول لها وقد طارت شعاعا ❁ من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء اليوم ❁ على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبرا في مجال الموت صبيرا ❁ فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ❁ فيطوى عن أخى الخنع البراع
سبيل الموت غاية كل حى ❁ فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يغتبط بسأم ويهرم ❁ وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة ❁ إذا ما عد من سقط المناخ

(١) شعر الخوارج : ١٠٨ ، ١٠٩ .

يرى زحام الأبطال وحومة النضال ، ويرى حربا مشتتة يبين
الشاعر وبين نفسه . وهذه الأبيات مع قلتها تعطينا صورة صحيحة
لفروسية الخوارج وكفاحهم ، كما تعطينا ما لدى شعرائهم من روعة فى
وصف المعارك والحروب ، ولصدق العاطفة فى القصيدة خرجت
أبياتها متوالية لا يند فيها بيت عن جاره .

وليت شعرى ماذا يضر مثل هذا الشعر لو كان فى المناسبات
والمواقف ، أليس كل ما نخلع عليه من إحساننا ونفيض عليه من
خيالنا ، ونتخلله بوعينا ، ونبت فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو
شعر وموضوع للشعر لأنه حياة وموضوع للحياة^(١) .

ولئن كان الشعر رسالة للحياة فما الحياة إلا مجموعة
مناسبات ، ولا ضرر على هؤلاء الشعراء أن يكتبوا فى المناسبات
وبخاصة أن أحدا لم ينتديهم ، وإنما هم الذين صرفوا أنفسهم إلى هذا
الشعر وآثروا أن يصوروا العصر وصراعاته وأحداثه اليومية ، أما
غير هؤلاء الشعراء ممن جاء شعرهم من مقتضيات المقام فهم قد
رجعوا بالشعر إلى الجمود حين قصره على المناسبات وجعلوه وقفا
على الأحداث وبعض ما تنزين به حفلات التأبين ، والشاعر آنذاك قد
انصرف إلى تملك شعور الجماعة فهو يرضى سامعيه قبل أن يمر
بخاطره إرضاء نفسه^(٢) .

والمتمعق لشعر الخوارج يخرج بعدة نتائج هى للحقيقة أقرب
منها إلى الاحتمال ، ذلك أنهم التزموا خطأ واضحا لا يجيدون
عنه ، وكانت لهم أفكار ونظريات وخطوط عريضة حافظوا عليها
وساروا جميعا على تنفيذها .

(١) مقمة عابر سبيل للمقاد (فى خمسة دواوين) ص ٣٧٨ . الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٧٣م .

(٢) انظر ثورة الأندلس . هيكل : ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٧ . القاهرة ١٩٤٨م .

وأشعار شعراء الخوارج الفرسان أمثال قطرى بن فجاءة وأبى بلال مرداس وعمران بن حطان وغيرهم مليئة بهذه الخطوط العريضة ، فكلهم يدعو إلى الفداء وبذل النفس رخيصة في سبيل العيش الكريم ، ومواجهة التحديات مهما كانت النتائج المترتبة على ذلك ، وهذا المنطلق واحد عند جميع شعرائهم ، وهو يختلف قوة وضعفا حسب نفسية كل واحد منهم ومؤهلاته .

ومن الأمثلة الحية على ذلك قول الرهين بن سهم المرادى (١) :

إنى لبائع ما يفنى لباقية ❁ إن لم يعقنى رجاء العيش تربيعا
أخشى فجاءة قوم أن تعاجلنى ❁ ولم أر بطوال العمر تنقيصا
وأسال الله بيع النفس محتسبا ❁ حتى ألقى في الفردوس حر قوصا

فنحن نلمس في الأبيات الشجاعة الفائقة الممزوجة بالحرص على مواجهة التحديات والاستهانة بالموت في أوقات الشدة والشعور الفياض في مجال الفروسية والحماسة ، وإيثار حياة العزة والكرامة على حياة الدعة والسلام .

ومن ذلك أيضا ، قاله عمران بن حطان (٢) :

لقد زاد الحياة إلسى بغضا ❁ وحبا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى ❁ وأرجو الموت تحت ذرى العوالي
ولو أنى علمت بأن حتفى ❁ كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى ❁ لها والله رب البيت قالى

(١) شعر الخوارج : ٦٢ .

(٢) المصدر السابق : ١٤٢ ، ١٤٣ .

الملاحم القصصية

شعر الخوارج في مجموعه صادق غير مزيف ، وهو شعر فطرى لم يتخذ وسيلة للمدح البعيد عن الحقيقة ، بل لا أبالغ إذا قلت إن هذا الشعر يحكى بوضوح قصة متصلة الحلقات بين الخوارج وبين أعدائهم ، وكان موضوع هذه القصة منصبا على حروب الخوارج وتحديدهم لخصومهم ، ودعوتهم إلى الفداء وبذل النفس رخيصة في سبيل العيش الكريم .

وشعر الفروسية عند الخوارج يقوم على الاختصار في الوصف والتصوير فليس لديهم قصائد كاملة في الفروسية ، وإنما هي لمحات يريك الشاعر من خلالها صورة لشجاعة الخوارج وبطولاتهم وتفانيهم في سبيل مبدئهم . وهذه في مجموعها تصل لأن تكون مادة للفن القصصى ، فالشاعر يسجل في القصيدة كل ما يدور فى يومه من أحداث مثيرة ، وغالبا ما يبدأ تصويره بزمان ومكان محددين ، وقد يلجأ إلى الحديث عن تجهيز العدة والعتاد ، فيتحدث عن الأسلحة من خيل وقسى وسهام ورماح ، ثم ينتقل إلى وصف الصراع الذى بينه وبين أعدائه .

وقد تشابهت طريقة شعراء الخوارج فى وصف الصراع ، فهم غالبا يتكونون على الخبرة وقوة الإرادة والصلابة فى النزال . ومع هذا فهم يختلفون فى الفن القصصى ضيقا واتساعا والتزاما بمقومات هذا الفن من شاعر لآخر ، والمعول فى ذلك كله هو شخصية الشاعر وطبيعته والدافع الذى دفعه إلى خوض هذه التجربة ، والمجال الذى يتحدث فيه الشاعر ومدى اتساعه أو ضيقه للحوار الذى يجريه الشاعر بينه وبين نفسه أو بينه مثلا وبين سلاحه .

ويحكي لنا الشاعر عمرو بن الحصين شاعر الإباضية في قصيدته "رثاء أبي حمزة الشاري وغيره من الشراة ، ووقعة يوم قديد"^(١) حديثا طويلا عن بطولات الشراة في الحروب ومآثرهم في القتال وعدم مبالاتهم بالمنية إن هي هجمت عليهم وأودت بحياتهم .. وهذه الأحداث إن هي إلا قصة طريفة ، يتخللها بيان رائع لوصف السبل التي يسلكها فرسان الخوارج كوسيلة لتحقيق مآربهم وتنفيذ غاياتهم .

وإذا كانت الملحمة قصة شعرية موضوعها وقائع الأبطال الوطنيين العجيبة التي تبوئهم منزلة الخلود بين بنسى وطنهم^(٢) ، وإذا كان كل شعر - طال أو قصر - وقد وصفت فيه المعارك ، وسردت فيه أخبار البطولة ، ورويت فيه ملاحمات الجياد هو من شعر الملاحم^(٣). فإن هناك ملحمة بطولية رائعة تتمثل في أشعار الخوارج التي صورت أهوال الحرب وفتكاتها ، وتغننت بالبطولة والأبطال وصدرت عن روح جماعية ، وأبرزت مثل الخوارج كجماعة ، كما أبرزت تطعاتها ومعتقداتها .

والحقيقة أننا إذا تلمسنا الجوانب الفنية للملحمة في شعر الخوارج فإننا نقول بكل صراحة إننا لا نبتغي في أشعار الخوارج ما نبتغي من الملحمة التي تبرز فيها مواقف رئيسية تتسلخ منها مواقف أخرى فرعية ، وتتسع فيها الأحداث وتفصل ، ويتجلى فيها الحوار القصصي ، ويكثر فيها الشخصيات . بل نبتغي ما نجده في القصص القصير من إيجاز في تصوير الأحداث وبداية جيدة وسرعة الحركة ، وصياغة فخمة تتناسب مع جلال الملاحم والحديث عن

(١) أنظرهما في شعر الخوارج : ٢٢٣ ، ٢٢٨ .

(٢) النقد الأدبي ، د. غنيمي هلال : هامش ص ٨٩ .

(٣) شعر الحرب في أدب العرب ، د. زكي المحاسني : ٢٩ .

البطولة والأبطال . هذا إلى ما فى أشعار الخوارج من روح جماعية
تشيد بجماعة الخوارج وأمالهم ، وما يتسمون به من حسن بلاء وقوة
احتمال .

وتاريخ الخوارج الحافل كان جديرا بأن يحمل الشعراء على
تسجيله وتصويره ، وكان يمكن للشعراء أن ينظموا فيه ملحمة عظيمة
كالإلياذة والشاهنامة ، فتجمع تاريخ الخوارج ، وتخلد أمجادهم فى السلم
والحرب ، وتكون هذه الملحمة كتاب فخر لهم وقدوة لحماستهم المنقطعة
النظير ولكننا لدى استعراضنا لما خلفه شعراء الخوارج من شعر نجده
ضئيلا ، وهو مع ضآلته مقطوعات قصيرة ، ولم يشذ عن ذلك إلا
قصائد قليلة كمطولة عمرو بن الحصين العنبرى التى يرثى فيها أبا
حمزة المختار وغيره من الشراة التى جاوزت الخمسين بيتا ، وقد
تميزت بدقة الوصف وتكرار المعانى ، واستقصاء الموضوع الذى
يرمى إليه الشاعر بأسلوب قصصى .

سادسا : من شعراء الفروسية القبلية

(أ) النابغة الشيباني

شاعر بدوي من شعراء الدولة الأموية ، وكان يفد إلى خلفاء بني أمية فيمدحهم ويجزلون له العطاء ، ولما هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز وتولية ابنه الوليد العهد كان النابغة منقطعاً إلى عبد الملك مداحاً له .

وقد تغالى في مدحه ليزيد بن عبد الملك ، ووفد مرة إلى هشام ابن عبد الملك فلما رآه قال له : ألسنت القائل :-

هشام والوليد وكل نفس ❦ تريد لك الفناء لك الفناء

أخرجوه عنى! والله لا يرزؤنى شيبنا أبداً وحرمه .

أما فخره بحماسة قومه فهو أطوع له من التمدح بحماسة وشجاعة بني أمية ، وهو الدليل الواضح على أن فروسية هذا الشاعر كانت تتمثل أكثر ما تتمثل في نزعة القبلية .

يقول الأصبهاني^(١) : غنى أبو كامل مولى الوليد بن زياد يوماً

بحضرة الوليد :

امدح الكأس ومن أعملها ❦ واهج قوماً قتلونا بالعطش

فسأل عن قائل هذا الشعر فقيل : نابغة بنسى شيبان ، فأمر

بإحضاره فأحضر ، فاستتدده القصيدة فأنشده إياها ، وظن أن فيها مدحاً له فإذا هو يفتخر بقومه ويمدحهم فقال له الوليد : لو سعد جدك لكأنت مديحاً فينا لا في بني شيبان ، ولسنا نخليك على ذلك من حظ ، ووصله وانصرف .

(١) الأغاني : ٢٥٥/٧ .

ومن هذه القصيدة :

وبنو شيبان حول عصب ❁ منهم غلب وليست بالتمش
وردوا المجد وكانوا أهله ❁ فرووا والجود عاف لم ينش
وترى الجرد لدى أبياتهم ❁ أرنات بين صلصال وحش
ليس فى الأموال منها هجنة ❁ وضع البلق ولا عيب البرش
فيها يحوون أموال العدى ❁ ويصيدون عليها كل وحش
دميت أكفالهـا من طعنهم ❁ بالردينيات والخيل النجش
ننهل الخطى من أعدائنا ❁ ثم نفرى الهام ان لم نفترش
فاذا العيش من المحل غدت ❁ وهى فى أعينها مثل القمش
حسر الأوبار مما لقيت ❁ من سحاب جاد عنها لم يرش
ذاك قولى وثنائى وهم ❁ أهل ودى خالصا فى غير غش
فسلوا شيبان ان فارقتهم ❁ يوم يمشون إلى قيرى بنعش
هل غشينا محرما من قومنا ❁ أو جزينا جازيا فحشا بفحش

وهكذا تجلت العصبية القبلية فى شعر شاعرنا "النابغة الشيبانى"

وقد عبر عنها بنماذج رائعة من الفروسية ، وأرى شعره أقوى دليل
على شعر الفروسية الذى سكب على قومه وقبيلته .

(ب) الشاعر القطامي (١) :

وهناك شاعر آخر يعد شعره مثالا للفروسية القبلية وهو الشاعر عمرو بن شبيب التغلبي ، وهو يعد مثالا واضحا لشعراء الفروسية القبلية ، وشعره أصبح دليل على شعر الحرب الذي سكب صاحبه على قومه ، فلم يجعل لغيرهم نصيبا في شرفه ، وقد ذهب بعمود هذا الضرب من الشعر الأموي (٢) .

وهو شاعر حامل الذكر ، كان نصرانيا ثم أسلم ، يغلب عليه لقب القطامي .

قال عبد الملك بن مروان للأخطل : يا أخطل تحب أن لك بشعرك شعر شاعر من العرب ؟ قال اللهم لا ، إلا شاعرا منا مغدق القناع ، حامل الذكر ، حديث السن ، إن يكن في أحد خير فسيكون فيه ، ولوددت أنى سبقته إلى قوله :

يقتلنا بحديث ليس يعلمه ❁ من يتقين ولا مكنونه بادي
فهن ينبذن من قول يصبن به ❁ مواقع الماء من ذى الغلة الصادي

وهو أول من لقب بصريع الغواني بقوله :

صريع غوان راقهن ورقنه ❁ لدن شاب حتى شاب سود الذوائب
وقد جرت حروب بين قوم الشاعر وبين القيسيين ، وشهد كثيرا من هذه الحروب ، ولعل هذا هو السبب في وفرة شعره القبلي ، ولعله السبب في وفرة قسط كبير من شعره الحربي فيما قال من شعر .

(١) انظر الأغاني : ٩٤٥٧/٢٨ .

(٢) شعر الحرب في أدب العرب : ص ١١١ .

وخير ما يمثل ذلك قصيدته العينية التي قالها في مدح زفر بن الحارث بعد أن فك أسره وخلي سبيله ، فقد أشاد في هذه القصيدة ببني قومه بطولة وشجاعة وبأسا في الحروب ، ولم يستطع أن يخفى تلك العنصرية التي تسرى في دمه فقال : (١)

فأصبح سيل ذلك قد ترقى ❁ إلى من كان منزله يفاعا
فلا تبعد دماء بني نزار ❁ ولا تقرر عيونك يا قضاعا
وقد ابتلى بالحرب بين قومه بني تغلب وبين قيس عيلان ولولا
ذلك لما عانى الأسر ، ولما وقع أسيرا بيد زفر بن الحارث ، ولما احتل
ذكر الحرب والسلاح والفروسية شطرا كبيرا من شعره .

ومع تنويجه بزفر وبصنيعه معه إلا أنه - لتأصل روح القبيلة
في نفسه ولصدق بلائه وفروسيته - بعث قصيدة لزفر أخذ يمن عليه
في ثناياها ، ويظهر زهو قبيلته وبفرسانها .

يقول : (٢)

من مبلغ زفر القيسى مدحته ❁ من القطامي قولا غير إفناد
إني وإن كان قومي ليس بينهم ❁ وبين قومك إلا ضربة الهادي
مئن عليك بما استيقيت معرفتي ❁ وقد تعرض مني مقتل بادي
قلن أديبك بالنعماء مشتمة ❁ ولن أبدل إحسانا بإفساد
فإن هجوتك ما تمت مكارمتي ❁ وإن مدحت فقد أحسنت إصفاذي
وما نسيت مقام الورد تحسبه ❁ بيني وبين خفيف الغاية الغادي
لولا كتائب من عمرو نصول بها ❁ أرديت يا خير من يند وله النادي

(١) الأغانى : ٢٨ / ٩٤٨٢ .

(٢) الأغانى : ٢٨ / ٩٤٨٥ ، ٩٤٨٦ .

نماذج من النثر فى العصر الأموى

تمهيد

من الملاحظ أن النثر قد تطور فى عصر بنى أمية وتوعدت أغراضه تبعاً للتطور الذى أصاب العقلية العربية آنذاك ، وأخذ من ثم تتعدد أنواعه ، وكان من أهم أنواع النثر فى عصر بنى أمية :

- ١- الخطابة .
- ٢- الرسائل .
- ٣- المناظرات .

الخطابة :

غير أن الخطابة تعد على رأس الأنواع النثرية فى عصر بنى أمية ، وقد ساهمت عوامل كثيرة فى ازدهارها (١) ، وهناك من أنواعها :

- ١- الخطابة الدينية .
- ٢- الخطابة السياسية .
- ٣- الخطابة التى تتمثل فى الوفود إما للتهنئة أو للتعزية .
- ٤- الخطابة فى الحرب .

وقد تنوع أسلوب الخطابة بتنوع موضوعها ، فأسلوب الخطابة الدينية يعد وسطاً بين القوة والابتذال ، فهو أسلوب واضح لا يصل إلى حد الكلمات الغريبة ، لأن الخطبة الدينية - وكما هو معروف - يستمع إليها العالم والعامى .

(١) انظر تاريخ الأدب العربى د. شوقى ضيف (المصر الإسلامى) دار المعارف بمصر ط٧ ص٤٠٥ وما بعدها .

أما أسلوب الخطبة السياسية فهو يميل فى معظمة إلى القوة ، وقد تشتمل الخطبة السياسية على بعض الكلمات الغريبة ، وأسلوب خطب الحرب أسلوب حماسى بطبعه .

الرسائل :

كثرت الرسائل - وبخاصة الرسائل السياسية - فى العصر الأموى ، ولعل ذلك راجع إلى تفرق العرب فى الأمصار ، وتعدد ولايات الدولة ، هذا من جانب ومن جانب آخر فإن كثرة الأحزاب السياسية وتعدد الفرق الدينية كان عاملا مساعدا على ذلك .

والرسائل فى هذا العصر أنواع منها :

- ١- الرسائل السياسية .
- ٢- الرسائل الوعظية .
- ٣- الرسائل الشخصية .
- ٤- الرسائل الديوانية .

ومن كتاب الرسائل فى عصر بنى أمية : معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف الثقفى ، وقطرى ابن الفجاءة .

وقد تطور أسلوب الرسائل إلى أن برزت فى آخر العصر الأموى الكتابة الفنية فى رسائل سالم مولى هشام بن عبد الملك وابنه عبد الله وعبد الحميد الكاتب .

**أولا : خطبة الحجاج بن يوسف الثقفى
فى مسجد الكوفة
حين ولاه عبد الملك العراق**

المنا سبة :

حين توفى والى العراق بشر بن مروان اختار عبد الملك بن مروان الحجاج ليكون والى العراق الجديد سنة ٧٥هـ وأمره بالتوجه إلى مقر الولاية بأقصى سرعة ممكنة ، فترك بلاد الحجاز ، وتوجه للعراق فى اثنى عشر رجلا من أصحابه ، وعندما وصل إلى الكوفة توجه إلى المسجد وألقى هذه الخطبة المروعة .

نبذة عن الحجاج :

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ، داهية سفاك دماء، وخطيب لا يبارى .

ولد بالطائف سنة ٤١هـ ، ونشأ بها ، ثم التحق بجند عبد الملك ابن مروان ، وتولى قتال عبد الله بن الزبير فى مكة فأنكشفت مواهبه القيادية، الأمر الذى جعل عبد الملك يوليه أمر عسكره ، وبعد وفاة بشر ابن مروان أمر بتوليته على العراق.

وعندما عين على العراق اتجه إلى الكوفة ، وتوجه إلى المسجد وكان الوقت أول النهار ، فما كان من الناس إلا أن أسرعوا إلى المسجد ظنا منهم أن الخوارج هم الداعون ، بينما كان كل من دخل المسجد ينظر إلى ذلك الرجل الذى تغطى عمامته وجهه ، بحيث لم يظهر منه إلا القليل ، وألقى خطبته العنيفة التى نحن بصدد تحليلها وشرحها .

أما عن فصاحة الحجاج فقد شهد بها القاصي والداني ، فهو يعد وزياد بن أبيه أشهر الخطباء السياسيين في العصر الأموي ، وكان الحجاج يعرف هذه القدرة في نفسه ، فأخذ يستعين بموهبته الخطابية ، وقدرته الكلامية في إقناع الخصوم ، ودفع الناس ، وتوجيههم الوجهة التي يريدونها .

والخطبة التي بين أيدينا تعد من أشهر خطبه وأروعها ، ولم لا والحجاج له أسلوبه الخاص في الخطابة ، وهو يعشق الألفاظ الغريبة ، والأساليب المتينة ، وينفر من الأساليب المبتذلة .

ومن الروايات التي تحدثت عن مناسبة هذه الخطبة^(١) يتبين لنا أن الحجاج كان داهية مأكرا ، فقد دخل المسجد متقلدا سيفه ، متنكبا قوسه ، وقد نلثم بعمامته ، ولكي يبدأ صفحته مع أهل الكوفة بزرع الخوف والرعب في صدورهم دخل المسجد بهذه الصورة الغريبة التي لم يعتادها الناس إلا في جماعات الخوارج ، وصعد المنبر وهو ملثم واجتمع الناس ، وطال انتظارهم ، واحتاروا في أمر هذا الرجل السذبي ظل على المنبر ساعة دون أن يتكلم ، حتى فاجأهم جميعا بهذه الخطبة المروعة المجلجلة .

وحين فرغ من الخطبة أشار إلى غلامه أن يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فبدأ يقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم) فسكتوا جميعا ، فقال الحجاج : اكفف يا غلام ، والتفت إلى الناس فقال : أيسلم عليكم أمير المؤمنين ولا تردون؟! والله لأودينكم غير هذا الأدب ، فلم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، وهذا يوضح أن الحجاج يعلم علم اليقين ما العراق ، فحشد له كل ما أوتى من مواهب وقوى .

(١) انظر البيان والتبيين (ج٢) للجاحظ ، وانظر الكامل (ج١) للمبرد .

النص^(١)

" فإين جلا وطلاع الثابيا ❁ متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة . أما والله إني لأحمل الشر بحمله ، وأخذوه
بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى أبصارا طامحة ، وأعتاقا
متطاولة ، ورعوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وكأنى
أنظر إلى الدماء بين العمائم واللقى تترقرق ، ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم ❁ قد لفها الليل بسواق حطم
ليس براعى إيل ولا غنم ❁ ولا بجزار على ظهر وضم
ثم قال :

قد لفها الليل بعصلبي ❁ أروع خراج من الدوى

مهاجر ليس بأعرابي

ثم قال :

قد شممت عن ساقها فشدوا ❁ وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وترعرد ❁ مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بد

إني والله يا أهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوي
الأخلاق ، ما يقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد
فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وجريت إلى الغاية
القصوى ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين
يديه ، فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم
بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتن ، واضطجعتم فى مراقد

(١) الخطابة فى صدر الإسلام : ٣٤٤/٢ - ٣٤٧ . د/ محمد طاهر درويش ، دار المعارف بمصر
١٩٦٧ م .

الضلال ، وسننتم سن الغى ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المرورة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قريسة كانت أمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنى والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت ، فإيسى وهذه الشفعاء ، والزرافات والجماعات ، وقالوا وقبلا ، وما تقول ؟ وفيم أنت وذاك ؟ أما والله لتستقيم على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده .

وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطيائكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، وإنى لأقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله ."

شرح المفردات:

ابن جلا : أى المنكشف الأمور واضحا ، أو ابن رجل جلا الأمور، وكشفها ، أو يكون ابن جلا رجلا معينا عرف بالفتك والغارة ، وطلوع الثيايا : وهى الطرق فى الجبال ، والعمامة مغفر الحرب وخوذته .

الشد : العدو والهجوم . زيم : اسم لفرس أو ناقة . الحطم والحطمة : الراعى وسائق الماشية يجهدا ويشد عليها . الوضم : ما يقطع عليه اللحم .

العصلبى : الشديد القوى . الأروع : الذكى ومن يعجبك شجاعته . الدو والدوى : الفلاة الواسعة يسمع فى الليل دويها .

عرد : شديد . البكر : الفتى من الإبل .
يقعقع بالشنان : الشنان جمع شن وهو القربة البالية ، قعقع :
أحدث صوتا .

الكنانة : جعبة السهام .

عجم العود : عضه واختبره ليعرف مدى صلابته وقوته .

أوضعتم : أسرعتم السير .

لحا العصا : قشرها .

المروة : حجر أبيض براق يقدح النار .

أعصبنكم : أجمعكم كما تجمع أغصان السلمة ثم تضرب
بالعصا ليسقط ورقها . والسلمة : شجرة ذات شوك . غرائب : جمع
غريبة ، وغرائب الإبل تضرب لتتأذى عن الماء ضربا شديدا .

أخلق : أقرر . فريت : قطعت .

الزرافات : جمع زرافة (بفتح الزاء وضمها) وهى الجماعة من
الناس .

القال والقيل والقالة فى الشر .

التعليق

استهل الحجاج خطبته ببيت من الشعر يزكى فيه نفسه ، ويتغنى بوضوحه وشدته ، والبيت لشاعر مخضرم اسمه سحيم بن مرثيل الرياحي ، وكأنه يريد أن يقول للناس إنني علف بالأمور ، جلد على أتم استعداد للصعاب ، صغيرها وكبيرها ، وسوف تعرفون أى نوع من الرجال ذلك الأمير المثلث عندما يحسر اللثام وينكشف وجهه .

وأشار أنه لا يفزع من الضجيج ، ولا يتأثر سريعا ، ولا يثور لأول صيحة ، وإنما يأخذ الأمور بالحكمة ، أى أن اختياره لإمارة العراق لم يكن اعتباطا ، وإنما هو ناتج عن ترو ، واختيار دقيق ، وأن أمير المؤمنين عندما أراد اختيار أمير للعراق جمع رجاله فاخترهم ، فوجد الحجاج أشدهم مرارة وقسوة ، وأنسبهم إلى الفتنة التي أخذت تدب في أرض العراق .

ثم أخذ يهدد ويتوعد ، وأقسم أن يعاملهم معاملة شديدة قاسية كما ورد تفصيل ذلك في الخطبة ، وأخيرا أخبرهم أنه يقول ويفعل ، وأنه ماض في تنفيذ كل ما وعد به ، ودعا الناس إلى العمل والجد ، ومعاونة رجاله في قتال الخوارج .

ومن هذا العرض يتضح أن الحجاج كخطيب تفيض أفكاره بالوعيد والتهديد ، ولا غرابة في ذلك فهو رجل يحمل إمارة بلد يزخر بالفرقة ، وتكتفه الأهواء ، فالخوارج على أبواب الكوفة ، وثورة ابن الزبير لم تجف دماؤها ، والشيعية يعلنون تدميرهم من الأمويين ، ومن جهة أخرى تقدح العصبية شررها بين تميم والأزد ، وعلى هذا راحت أفكار هذه الخطبة تسرى بين الناس ، وعم بينهم تأثيرها .

على كل حال أبان الحجاج من خلال هذه الخطبة منهجه في السياسة والحكم ، والفصاحة والبلاغة ، فجاء بألفاظ مجلجلة ، تملأ القم ، وتترك أثرا قويا في أذن السامع ، ومثل هذه الألفاظ : (جلا ، طلاع ، قطافها ، يققع ، بقاءه ، واضطجعتم ...) ، كما أنه أتى بألفاظ خشنة وعرة وكأنه يتعمد الغريب ؛ كي يوقع الرعب في القلوب .

وتتجلى في ألفاظ الحجاج ، ومعانيه وتراكيبه شخصيته ، فيتأكد لمن يسمعه أنه يسمع خطيبا فصيحاً ، فانتكا ، داهية ، شجاعا ، ومن التراكيب التي ينتظم فيها ذلك قوله : (إني لأرى رؤوسا ...) ، وقوله : (فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة ...) ، وغير هذا وذلك من التراكيب التي تمتلئ بالألفاظ الجيدة المنظمة الخالية من الحشو ، ومن الكلمات النابية عن مكانها ، أو الغير مؤتلفة مع الكلمات الأخرى .

والخطبة بما أنها أول خطبة يواجه بها الحجاج أهل العراق ، يتضح أنه كان يعدها الضربة الأولى ، والمواجهة الحاسمة ، والجولة التي ليس بعدها جولات مع أهل العراق ، ولذلك أكثر فيها من عبارات التهديد والوعيد ، والسباب والشتم الصريح .

والحجاج كخطيب لا يعنى بظهور المعنى ، ولا يهتم بانكشافه لأول وهلة ، لذا راح يأتي بالألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى تأن في إدراكها وفهمها ، مثل اعتماده على المجاز في قوله : (إني لأرى رؤوسا ...) وقوله : (ولقد فررت ...) . والحق أن الخيال قد ساهم إلى حد كبير في صنوع أسلوب خلاب يأتي أحيانا في صورة استعارة ، ويأتي أحيانا أخرى في صورة تشبيه ، وهو في كل أحواله يناسب الحالة التي يعيشها أهل العراق ، وهذا يعنى أن الخطيب قد حرص على أن يأتي أسلوبه تتوافر فيه كل مقومات الأسلوب القوي المتين .

وهو يستخدم الأسلوب الخبرى للتهديد والوعيد ، ويميل إلى استخدام أساليب التوكيد بكثرة ، كما فى قوله : (إنى لأرى ...) (وإنى لصاحبها) (إنى والله) (وإن أمير المؤمنين) (وإنى والله) ، وقوله : (قد أينعت) ، (ولقد فررت) ، وقوله : (والله لأحزمنكم ...) ، ومعنى هذا كله أن الحجاج فى منتهى الصراحة فى كل ما يقول ويفعل .

والخطبة موجزة محددة تتلاءم مع مقتضى الحال ، تعتمد على كثير من ألوان البديع التى تلفت الانتباه ، وتحرك الأذهان ، وفيها توازن بين جملها ، واتفاق فى فواصلها ، وقد أتى الحجاج فيها بالسجع غير المتكلف ، وأتى كذلك بالفقرات القصيرة ، واقتبس من القرآن الكريم ما يعينه على أداء مهمته .

كذلك اقتبس من الشعر الجاهلى ، كقوله :

قد لفها الليل بعصلى ﴿١﴾ أروع خراج من الدوى

مهاجر ليس بأعرابى

وهو يريد أن يقول إنه عنيد وذكى ، يجوب الصحراء لا كالبدوى الساذج الذى يضحك منه .

ولا جدال فى نهاية الأمر فى أن الحجاج كانت له شخصيته القوية الفذة ، وأنه كان خطيباً مفوهاً ، تكشف خطبته التى بين أيدينا عن شخصيته ، وتحدد ملامحه النفسية ، ولهذا كانت هذه الخطبة محل اهتمام كبير عند القدماء والمحدثين .

وقد استخلص الدكتور محمد طاهر درويش فى كتابه :
(الخطابة فى صدر الإسلام)^(١) مجموعة من الخصائص الفنية للخطابة
فى هذا العصر ، وكلها تتمثل فى اللفظ والصورة والمضمون ،
والمعنى ، والأسلوب .

يقول : " تكلمنا فى الفصول السابقة عن موضوعات الخطابة
واتجاهاتها الرئيسية ، وبيننا أن اللون السياسى قد غلب
عليها ، وأوضحنا ما لحقها من تطور ، وكيف استطاعت أن تمثل
الحياة السياسية والدينية والاجتماعية ، وعرضنا بعض الخطباء
والنصوص الخطابية وبقي بعد هذا أن نستخلص من تلك النصوص
الخصائص الفنية للخطابة فى هذا العصر ، وهو ما سنتحدث فيه الآن ،
وهذه الخصائص تتمثل فى اللفظ والصورة ، والمضمون
والمعنى ، والأسلوب .

فى اللفظ والصورة نرى سهولة الألفاظ والعبارات ، وإشراقها
وحسن ديباجتها ، وبساطتها وفصاحتها ، وجمال وقعها ، مع القوة
والجزالة والرصانة ، متأثرة فى ذلك بالقرآن الكريم ، متتبعة سبيل
السلف الطيبين ، وقد أعانها على هذا مجافاة أهلها البداوة ، وأخذهم
بنصيب من حياة الحضارة ، واللغة كائن حى يؤثر فيما حوله ، ويتأثر
بما حوله كسائر الكائنات الحية ، وقد تركت الحضارة آثارها فى
المظاهر المختلفة لحياة هؤلاء العرب بذلك العصر .

(١) (الجزء الثانى) ص ٤٢٨ - ٤٣٢ . دار المعارف ١٩٦٧ م .

كما نرى لإحكام نسج العبارة ، وقوة التآخي بين ألفاظها ، وملاءمتها لما تدل عليه من معنى ، ودقة تعبيرها عنه ، وتصويرها إياه ، في عنفه وشدته ، ولينه ورقته ، وقدرتها على المبالغة فيه عند الاقتضاء وكم رأينا فيما عرضنا من خطب كيف يكون حسن انتظام الألفاظ والجمال الزاجرة الضخمة العنيفة ، القوية الأداء ، المعبرة أدق تعبير عن المعاني المرغوبة ، في جودة من الصياغة ، وعناية واضحة بحسن الرصف .

وفي هذه الخطب ظاهرة واضحة ، هي انتقاء الألفاظ والجمال انتقاء يتمثل فيه قدرتها على الإفصاح عن شخصية الخطيب ، والدلالة على الحال القائمة ، ولذلك لا نجد في أكثر خطب الشيعة عنف الألفاظ وضخامة العبارة ، ولا روعة التهويل في التصوير ، التي تغلب في خطابة الأمويين ، وتدل على بطش السلطان ، وقهر الطغيان ، ونجد في خطب الخوارج العبارات المفصحة عن شدة إيمانهم ، واستماتتهم في الدفاع عن دعوتهم ، ومن هنا ندرك أن قوة الخطبة ترجع إلى أسباب ، أهمها شخصية الخطيب ، وما يستدعيه المقام ، والاستمداد من سطوة السلطان ، أو قوة الإيمان .

ومن الظواهر الواضحة في صورة الخطابة اللفظية أخذها من كلمات القرآن وعباراته ، فلبست بذلك رداء لا يبلى من الحسن والطلاوة والجدة ، واتجاهها إلى جمال تقسيم الكلام ، فأصابت به غاية محمودة .

وفي المضمون والمعنى يتمثل في خطابة هذا العصر وضوح المعانى وقربها ودقتها وجدتها واتساعها وعمقها وترتيبها .

وقد كان لها من الأحداث العظيمة المختلفة المتلاحقة ، والدعوات الكثيرة المتعارضة ، ودواعي الحضارة الجديدة ، والظواهر الاجتماعية الحديثة ، التى زخر بها العصر ، وأفسح لها فى المجال - زاد وفير من المعانى الجليلة القوية ، الجديدة المتجددة ، يأخذ منها الخطباء ، فشققوا تلك المعانى ورتبوا ، وتوسعوا فيها .

وأعانهم على هذا ما لمسناه بخطاباتهم من رهافة الحس ، وصدق الشعور ، وحرارة العاطفة ، وقوة الإيمان ، والحماسة للعقيدة ، فجاءت صادقة ، جارية على السليقة والطبع ، كما يبدو ذلك واضحا فى خطابة الخوارج والشيعه .

وكان فى استجابة الألفاظ لهذه المعانى تكريم لها وصيانة ، فبرزت فى أحسن معارضها ، وجليت فى أجمل ثيابها ، مما ضمن لها التوفيق فى إصابة مواضعها وغاياتها .

وأما الأسلوب : فقد كان مجلى لخصائص كثيرة ، من أهمها القوة ، ووضوح الدلالة ، والمقدرة البيانية الفائقة ، والافتنان فى القول ، اللذان أتاحا لخطيب كواصل بن عطاء أن يرتجل خطبة طويلة بليغة خالية من الرءاء ، وقدرة الخطابة على تصوير حياة العصر ، حتى لتقرأ فيها تاريخه واضحا صادقا غير مدخول ، بل صارت مصدرا لذلك التاريخ .

وترى متانة تأليف الخطبة ، وحسن تقسيمها إلى عناصرها ، وترتيب أجزائها وأفكارها ترتيبا منطقيا ، على نحو ما كان عند زياد وقتيبة بن مسلم ، وأم كلثوم بنت علي ، وغيرهم ، وهذه الظاهرة مما جد في هذا العصر ، وتفرق بها خطابته عن خطابة العصر الديني . ويتصل بهذا قصرهم الخطبة غالبا على موضوع واحد ، بعد أن كانت الخطبة تتناول موضوعات مختلفة في العادة .

وتبدو العناية بالتجويد والتنميق والتأنق في صياغة الخطب واضحة ، إلى ما فيها من ضروب المهارة البيانية ، وبراعة العرض ، والقصد إلى إبراز المعاني في صورة فنية باهرة ، كما ترى في خطب زياد ويزيد بن أبي سفيان والمختار بن أبي عبيد ، وهذه الظاهرة عند خطباء المحافل أوضح منها عند غيرهم .

ومن خصائص الخطابة البارزة زوال الفوارق الأسلوبية بين خطابة البدو وغيرهم ، فلم نعد نرى في خطابة الوفود ذلك الغريب النافر من الألفاظ ، ولا تلك الجفوة الخشنة في الخطاب ، كما كنا نرى في أقوال الوفود على الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن الصنعة البيانية قد ظهرت في محيط الخطابة ، بما يبدو فيها من رعاية الإيقاع الصوتي ، والقصد إلى التوافق الموسيقي ، والإكثار من التكرار والترادف ، وهو واضح عند الوعاظ والقصاص ، وكان من قبل قليلا في العصر السالف ، لا يكاد يبين .

وقد زاد اعتماد الخطباء على التشبيهات والاستعارات العجيبة ، وفشا ذلك فيها ، وعنوا عناية واضحة برسم الصور البيانية القوية ، وعرض الرسوم المتحركة وتشخيص المعانى ، وهذا كثير عند زياد والحجاج وقطرى .

وقد أخذوا من القرآن اقتباسا وتضمينا واستشهادا ، وأكثروا ، وترى هذا واضحا عند الخوارج والشيعة ، وهو أكثر وأظهر فى الخطابة الدينية ، وقد بلغ بهم ذلك أن جعلوا الخطب كلها قرآنا ، كما فعل مصعب بن الزبير ، واتخذوا المحاجة بالقرآن وآياته مكان الجدل والبراهين والحجج الخطابية والأقيسة المنطقية ، على ما نرى فى خطب الخوارج .

كما أحسوا التمثل بالشعر ، وأكثروا منه ، قصد المبالغة فى التأثير ، ولأن الشعر كان قد استعاد فى هذا العصر مكانته ، واسترد دولته ، والناس إذ ذاك بين خطيب وشاعر وراوي ، وقد تمثل به عبد الملك والحجاج وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، كما تمثل به القصاص فى قصصهم .

وقد لجئوا إلى ضرب الأمثال بخطبهم ، وقد خطب عبد الملك بالمدينة خطبة طويلة بناها على مثل من الأمثال السائرة ، واستخدمتها أم كلثوم بنت على فى خطابتها ، وكان العصر الدينى قد أهملها وأطرحها .

ومن مميزات الأسلوب صدق الأداء ، المفضى إلى إصاحه عن شخصية الخطيب ، وعن المعانى المقصودة ، وكان للشعبة أسلوب يغلب فيه قوة دفاع المظلومين ، وللخوارج أسلوب يبدو فيه عناد المتحمسين ، ولأمويين أسلوب تتجلى به سياسة الحاكمين ، وبطش القادرين ، وخطب معاوية وزيد والحجاج وعبد الملك على هذا شاهد أمين .

وكان للخطابة عناية بحسن المقاطع والازدواج وتساوى الفواصل والسجع ، على نحو ما نرى عند معاوية وابنه يزيد وزيد وعتبة بن أبى سفيان وعبد الملك والخوارج ، ورعاية للإيقاع الموسيقى وتقصير الجمل ، يهدف ذلك كله ، إلى قوة الوقع وعمق التأثير ، بما تهيأ فيه من الأسباب ، كما يهدف إلى يسر حفظه وروايته ، ولذلك نراه يكثر فى الخطب التى ترسم سياسة عامة .

وقد غلب السجع على خطابة بعض الشيعة ، والتزمه المختار التلقى ، وبدا فيه الصنعة والافتعال ، وشابه به سجع الكهان والمتبئين ، بما فيه من إيهام وإيهام وإغراب وأقسام ، كما كثر فى خطب المحافظ والوعظ .

وفى خطابة هذا العصر الإيجاز اللائق بصاحب السلطان ، كما ترى عند معاوية وزيد ، وفيها الإيجاز فى موضع الإيجاز ، تراه عند عبد الملك ، والإطناب فى موضع الإطناب يبدو عند الحجاج وزيد .

وقد تجلى فى هذه الخطب وصحبها بعض دعائم الخطابة ، من حضور بديهة الخطيب ، وقوة عارضته ، ورباطة جأشه ، مما سبقت إليه الإشارة فى الكلام عن معاوية وعبد الملك والحجاج وقتيبة .

وقد تبين لنا مما عرضه الدكتور درويش أن الخطابة قد تطورت فى هذا العصر تطورا ملحوظا ، كما تبين لنا كذلك أن القرآن الكريم أثر تأثيرا كبيرا فى ألفاظها ، ومعانيها ، وأساليبها .

ثانيا : رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكاتب

عبد الحميد الكاتب :

من أشهر الكتاب في عصر بني أمية ، وهو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري ، من موالى بنى عامر بن لؤى ، وهو فارسي الأصل ، ويقول أكثر من ترجموا له إنه من آل الأنبار بالعراق ، وسكن الرقة ، وعرف في نفسه فصاحة ومهارة بيانية ، وقد طُور الرسائل بكثرة التحميدات في صدر الرسالة ، وبالتوسع في المعاني ، والعناية بترتيبها ووضوحها ، وقد التحق بديوان هشام بن عبد الملك . ويتولى مروان الخلافة (١٢٧ - ١٣٢هـ) فيصبح عبد الحميد رئيس ديوانه ، وكان وفيًا لمروان بكل صنوف الولاء ، وظل يلازمه حتى إذا هزم في موقعة الزاب فر معه إلى مصر حتى قتلًا في معركة بصير عام ١٣٢هـ^(١).

النص (٢)

" أما بعد ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووقفكم وأرشدكم !فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم ، والرواية . فتنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقهاوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فإنها تقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها

(١) انظر شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي) (العصر الإسلامي) ص٧٣ ، وانظر كذلك صبح الأعشى للقلقشندي ج١ص٨٥ وزارة الثقافة والإرشاد القومي . وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص١٧٠ .

(٢) انظر شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي) (العصر الإسلامي) ص٧٣ ، وانظر كذلك صبح الأعشى للقلقشندي ج١ص٨٥ وزارة الثقافة والإرشاد القومي . وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص١٧٠ .

ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سفيها وندبها وسفاسف الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات واربؤوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكبر والصلف والعظمة فإنها عداوة مجتلية من غير إحنه ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبيل من سلفكم .

المفردات :

ثقاف : مقوم قوام الشيء: عماده الخراج : الجزية
سنيها : عظيمها الصلف : التطاول إحنه : حقد

الدراسة :

لا ريب أن عبد الحميد الكاتب هو أبلغ كتاب العصر الأموي ، فلم يعرف الكتاب رسالة نهجت نهج رسالة عبد الحميد في أفكارها ، فقد وجهها إلى فئة من الكتاب ومن ثم ففكرتها جديدة .

وهي تشتمل على نصائح تصلح للكتاب وغيرهم ، فهو يطلب منهم أن يتحلوا بحلى العلم والأدب ، وانتقل بعد ذلك إلى التصريح بأن عليهم أن يوسعوا ثقافتهم في الدين والفرائض حتى يقفوا على أحكام الشريعة إلى آخره .

والرسالة مقسمة إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

مقدمة :

وتبدأ من قوله : "أما بعد" وتنتهى بقوله : "أهل الأدب
والمروءة والعلم والرواية".

صلب الرواية :

(عدة الكاتب) وهو يبدأ من قوله : "فتنافسوا يا معشر الكتاب"
إلى قوله : "والنبل من سلفكم".

خاتمة الرسالة :

وهى بعد ذلك ، وهى تمثل دعاء للكتاب بأن يحفظهم الله
ويرعاهم . والرسالة المذكورة تمثل ثقافة عبد الحميد ، كما تمثل أسلوبه
المتطور الذى يقوم على تنويع العبارة ، إذ ضمن المقدمة
الدعاء ، واختار أسلوب الأمر فى حديثه عن عدة الكاتب ، ثم لم يلبث
أن عاد للدعاء فى الخاتمة .

وأسلوب عبد الحميد الكاتب بدون ريب أسلوب متطور حسن
الصياغة ، فألفاظ الرسالة خالية من الغريب ، وتراكيبها متماسكة
الألفاظ ، متألفة فيما بينها ، ليس فيها حشو أو ابتدال ، وليس فيها تعقيد
يمنع من فهم المعنى .

ومن المسلم به أن الكاتب قد طور الرسائل بكثرة التحميدات فى
صدرها ، وبالتوسع فى المعانى ، والعناية بترتيبها ووضوحها ، ومن
الظواهر اللافتة للنظر فى أسلوبه شيوع الترادف الذى هو ناتج عن
تطويل الرسائل ، وكثرة استخدام حروف العطف ، واستخدامه للسجع
المناسب الخفيف ، وتنويع العبارة ما بين دعاء وأمر وتحذير .

ومما جاء به مما يجمع عددا من الكلمات لمعان متقاربة قوله :
(وحاظكم ، ووقفكم ، وأرشدكم) ، وقوله : (أهل الأدب ، والمروءة ،
والعلم) .

ومن السجع الذى جاء به قوله : (فتنافسوا يا معشر الكتاب فى
صنوف الأدب) ، وقوله : (فإنها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب) .

والرسالة تحمل جميع خصائص عبد الحميد الكاتب التى تميز
بها فى أسلوبه ومعانيه ، فهو يزين الرسائل بحلى من آيات القرآن
الكريم ، ويأخذ يقتبس من أسلوبه ، وما فيه من روائع المعانى
والصور .

يضاف إلى ذلك أنه عنى بتجويد العبارة وتفخيمها ، والاعتماد
على السجع دون أدنى تكلف ، وعلى حسن تقسيم الجمل ، وترادف
عباراتها، وتوازنها الموسيقى .

ومعانيه متسلسلة ، جيدة الروابط ، تسير فى نسق منطقى
رائع، ومجمل هذه الخصائص تشكل فنا راقيا ، ومستوى ممتازا فى
الكتابة، الأمر الذى جعل الشعراء يضربون الأمثال ببلاغة عبد الحميد .

والرسالة تشبه المقالة كتبها عبد الحميد الكاتب لبيان مكانة
الكتاب وأثرهم فى توجيه الحكام والقادة ، والتعبير عن شرف الكتابة
ورفعة شأنها ، ويدعوهم إلى الأخذ بالأسباب فى القيام بواجبهم بأمانة
والتحلى بالتفقه فى الدين ، والنظر فى كتاب الله ، ثم إتقان اللغة
العربية، وإجادة الخط ، والاطلاع على التاريخ والأيام ، والاستفادة من
الشعر ، وتعلم الحساب ، وما إلى ذلك .

والكاتب يأتي في رسالته بأسلوب الخبرى لفظيا ، الإنشائي
معنى ، لأغراض بلاغية يريد بها ، ويأتي بأسلوب القصر لإفادات
متعددة، ويأتي بالتفصيل بعد الإجمال ، كما يأتي بالتعليل
والتشبيه ، ويكثر من أسلوب الأمر الذى غرضه البلاغى النصح
والإرشاد ، مما يعكس سعة ثقافته ، وبعد نظره فى شؤون السياسة
والحكم .

والرسالة تعكس ما أصاب هذا اللون الكتابى من تطور
وتفنن ، كما تشير إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وتنظيم ديوان
الرسائل ، وتشير كذلك إلى ازدهار العلوم الدينية والعربية .

الخاتمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله
وأصحابه ومن والاه .

ويعد :

فهذه طائفة من عيون الشعر العربى فى عصر بنى أمية قدمناها
فى ثوب جديد ، يطابق فى أسلوبه وطرائق عرضه أحدث المناهج
وأفضل الطرق التربوية ؛ وغايتنا من ذلك أن يتمرس قارؤها التفكير
السليم ، والاستنتاج الجيد ، وإبداء الرأى ، ومن ثم الإبداع
والابتكار ، والنقد الموضوعى .

ولكى يكون الكتاب متكاملًا فى تحقيق ما نهدف إليه ، وضعنا بين
يدى كل موضوع ما يعين على الفهم ، فشرحنا الألفاظ والتراكيب التى
لا غنى عن معرفتها ، وناقشنا ما فى النص من أفكار وصور
بيانية ، وغير ذلك مما يعين فى علوم العربية بشتى ألوانها ، ويمكن من
فهمها وتذوقها ، وإدراك ما أودعه الله فيها من أسرار وبلاغة .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ،

أ.د / طلعت صبح السيد

فهرس الموضوعات

المقدمة

تمهيد :

- أولاً: مدخل إلى دراسة العصر الأموى .
ثانياً: تحليل النصوص الأدبية .
ثالثاً: مناهج تحليل النص الأبي .
 (١) المنهج الفنئ .
 (٢) المنهج التاريخى .
 (٣) المنهج النفسى .
 (٤) المنهج المتكامل .
رابعاً: الخطوات المتبعة فى دراسة النص الأدبى .

نماذج من الشعر فى العصر الأموى .

- أولاً: قصيدة فى الغزل للشاعر عمر بن أبى ربيعة .
ثانياً: الأخطل فى المديح والحرب والفروسية .
ثالثاً: الفرزدق يفخر ويهجو .
رابعاً: قصة غزلية للشاعر جرير بن عطية الخطفى .
خامساً: قصيدة فى الرثاء لشاعر الإباضية عمرو بن الحصين .
سادساً: من شعراء الفروسية القبلية .
 (أ) النابغة الشيبانى .
 (ب) الشاعر القطامى .

نماذج من النثر فى العصر الأموى .

- أولاً: خطبة للحجاج بن يوسف الثقفى فى مسجد الكوفة .
 حين ولاء عبد الملك العراق .
ثانياً: رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

الخاتمة

فهرس الموضوعات